الحمد لله وحده

المؤلف: عبد الإله ميوسي.

Dépôt Légal: 2022MO4942
ISBN: 978-9920-40-836-3

كلمة الكاتب:

"ها أنذا الشخص العاقل أمام اللغة المكتوبة، المجنون أمام العالم الذي فيه أتواجد، اسمحوا لي أن أجلس معكم في الظل لأكتب، لأستريح بعدما كنت منشغل، الآن أريد أن أكتب لأجعل بعض ما كان يشغلني على الأوراق و أنا في الظل جالساً أصف الضوء عندما يضيءُ شيئاً ما في هذه الحياة.

أضيئت العديد من المواضيع في حياتي عندما كنت في أيام مضت بين تأثير كتابة كتاب "بحثي"، و أنا فعلاً أبحث عن المعنى في وجود بعض الأشياء في حياتي و ذاتي بين عوالم الزمن، نظرت إلى عبد الإله ميوسي قبل البحث و بعد نهايته، كانت على وجهي ابتسامة منورة لأنني وجدت المعنى في حياتي و وجدت شيئاً أعاد توجيهي؛ وجدت ذاتي المفقودة، لكن الابتسامة كانت غير مفهومة، لأن المشي (التفكير) و الألم ينبع من رجلي اليمنى (الجانب الملَك) يجعلني أرى كيف أعرج يميناً و أشعر بألم يشبه صعقات ضوئية يترجمها عقلي بسؤال محرج "ثم ماذا؟"؛ حياتك بمعنى أو بدون، ثم ماذا؟ الوقت سيمر على طبيعته، و أنت ممن سيخطفهم الموت يوماً ما.

فعدت أتسكع بين المواضيع التي قمت بالكتابة عنها في كتابي و أنا أمشي بين أجمة لا أعرف اسم إقليمه، أتسكع بين المواضيع لأعرف إذ كان هناك شيء أثَّر على البحث.

من الأشياء التي كنت أبحث "بها" و وجدت مكانة تأثيرها في مرحلة البحث هي الموسيقى، و كنت قد سميتها "لغة الأرواح". بعد أخذي لنظرة عميقة لصورة الموسيقى أخذني شكُ رهيب حول كيفية تأثيرها في و كيف أن هي

“بهجتي”. عندها عرفت أن **إدوارد سعيد**[1] صدق عندما قال: "الموسيقى تعطيك المجال لتهرب من الحياة من ناحية، و أن تفهم الحياة بشكلٍ أعمق من ناحية أخرى".

رفضت أن أتهرب من الحياة عندما عرفت أن الموسيقى غير قادرة على أن تكون حل لبعض المشاكل بل فقط مشتتة لها، و أنها في بعض الأحيان ليست بالأنيس بل مصدر الوحدة الناتجة عن أشياء نجد أنفسنا داخلها و الموسيقى من نتجتْها، فدفعتني هذه النظرة التي جعلتني أشك في حقيقة وجود أنيسي الوحيد و الدائم أن أجرب و أكتب على ما تفعله الموسيقى بنا.

هذه الرواية تحمل قصة خيالية تعكس بها قصص الكثير من الناس في العالم الحقيقي الذي لا نألف التطلُّع فيه على الجانب الآخر لكل شيء. بهذه القصة و بهذه الرواية سأتكلم مع كل حزين أو مبشور، مع كل محب أو مدمن للموسيقى لأقول لهم كفاكم طيران بعقولكم في سماء لا توجد إلا بالصوت المرتب، باعتقادكم هذا الصوت هو الحل.

1 **إدوارد سعيد** منظر أدبي فلسطيني أمريكي يعد أحد أهم المثقفين الفلسطينيين وحتى العرب في القرن العشرين سواءً من حيث عمق تأثيره أو من حيث تنوع نشاطاته، بل ثمة من يعتبره واحداً من أهم عشرة مفكرين تأثيراً في القرن العشرين

ملاحظة: هذه الرواية التي تحملها بين يديك هي من إلهام و كتابة الكاتب فقط، أي أن لا تدقيق لغوي قد حصل لها، "":عِش مع الكاتب حرب اللغة و متعة سلم الإلهام الذي أحدث القصة، فالكتب و روايات ليس مجرد أوراق".

الفصل الأول:

الماضي حاضر من لا يتطور.

لا يرى سوى تحرك عقرب ساعة فوق مرقده الصغير، إنها العاشرة صباحاً، جو الحزن، صوت البكاء، رائحة غريبة تشبه تلك التي نكتشفها أيام الوعر. يريد أن يبحث عنه لكن عيناه هي لأخرى لا تتوقف عن جمع الدموع و سكبهم على خديه. لا يعلم لماذا رحل هذا اليوم مبكراً، يريد فقط أن يسأله ماذا يحصل، مُرتبك. وضع الساعة في يده و بدأ ينتظر كأنه ربما سيعود متأخراً فقط.

مرت ساعتين و هو لا زال ينتظر، و من زاوية يسمع: "إنه حفيد الأخ زَهَاكْ المسكين، لا يزال بسن العاشرة تقريباً ولا يملك أحد يرعاه بعدما رحل معلمنا، سنتكفل نحن و الصديق إبريز[2] تربية هذا الطفل كما أراد زهاك". عبارة أحد من أصدقاء الجد زهاك عندما وجد حفيده يبكي ولا يعلم لماذا حتى، يبكي و يشعر بالفراغ و الوحدة بين جميع من هم حاضرون في منزل الجد. يشعر بأن الجو محزن لكن لا يملك أي فكرة عن السبب، و هذا ما يجعل صدره يضيق أكثر.

جالساً بين الناس، يتذكر مقولة من أقوال جده الذي كان ينصحه بها: "إذ كثُرت أحزانك نَمْ"، لم يفكر بأي شيء بعدما تذكر النصيحة إلا أنه عاد إلى غرفته مسرعاً، و النظر إلى تلك الساعة في خوف و اشتياق من جَعله في سبات عميق حمل حلم جعل الجو المحزن الذي هرب منه أكثر رعباً.

أنه "سديم" حفيد المعلم "زهاك"، و هذه أحداث جنازة المعلم زهاك بعدما مات و أخذه الملك عن سن السبعين تقريباً.

استيقظ سديم صباح اليوم الآخر في صمت رهيب، كل من كان يبكي و يناجي ربه في ليلة الأمس ذهبوا. بحث عن جده في المنزل مرة أخرى و هو يجري بين

2 **إبريز**: اسم معناه الذهب الخالص

الغرف و الدمع يُظفر من عينه و هو يقول: "يا جدي، كنت تقول لي "لستُ حزيناً يا بني لأن الناس لا تعرفني ولكنني حزين لأني لا أعرفهم"، أنا الآن في الحزن الذي كنت تصفه وأنت في غضب. لا أعرف أحد من دونك يا جدي ولا أهتم بكل تلك النظرات التي كانت تتعاطف معي بها الناس ليلة أمس. أريدك يا جدي أن تعود، حتى لو تريد الرحيل إلى الأبد أريدك أن تخبرني بسبب رحيلك كيفما كنت تفعل لكل الأشياء التي أسألك عنها طوال اليوم".

صوت البكاء بين صوت حركة عقارب الساعة، و كلما يزور العقرب الصغير جميع الأرقام التي بدت كأنها هي الأنيس الجديد له، ينهض من مكانه ويبحث عن جده ظناً أنه فقط مشغول في ورشته بين الأوراق والكتب كيفما كان.

بينما بدأ اليأس يبطئ حركته سمع من الباب،"دق دق"؛ صوت يأخذ مقياس زمن لا يتعدى ثانية أو اثنين، لكن عندما سمعه ضَخَّ فيه من الفرح و و اللهفة ما جعله يظن أنه سيبقى سعيد إلى الأبد؛ ظن أن الجد عاد و أن الناس كانوا في حزن حول شيء آخر، لكن في الحقيقة صوت مقبض الباب عندما فُتح جعل الطفل سديم يعود إلى حزنه و بكائه.

إنه فقط أحد من جيران الجد زهاك من أتى ليخبره بالقدوم معه لتوديع جده؛ أي دفنه و جعل التراب مسكنه. لكن عاطفة هذا الرجل فور أن نظر إلى عَيْنَيْ سديم جعلت ما يخرج من فمه يعطي للطفل أمل آخر و فرِح مرة أخرى ظناً منه أنه سيذهب ليلتقي بجده. قال له الرجل:

"تعال يا سديم لنلتقي بجدك فأنت تشتاق إليه كثيراً، أليس كذلك، إنها المرة الأخيرة...".

لم ينتظر إكمال الرجل كلامه حتى أسرع راكضاً إلى غرفته، كان الجو بارداً ذاك الوقت فصل الشتاء لذلك ارتدى أجمل ما اشتراه له الجد من اللباس الشتوي. خرج و دموع الفرح تخشى المنظر الذي ينتظره، أمسك يد الرجل و ذهبا.

المسكين، شعوره بالأمان يتوقف مرة أخرى عندما يصلون إلى المقبرة، ليعلم أنهم الأموات و يرى الناس التي كانت تحاول مواساته في ليلة أمس موجودون، يعلم بعدها أن جده رحل بدون أي عناوين تعلن نهايته، يعلم أنه بين أموات فارقوا ناس آخرون و أنه هو الآخر سيشهد اليوم فراق جده الذي كان خليله منذ أن وُلِد. حفر القبر، الدعاء، الدموع، و الوداع و الخوف لكن دون عزف مقاطع موسيقية كالمعتاد فِعله عندما يموت شخصاً في هذا المجتمع الذي يعتبر الموسيقى رفيق الروح إلى الأبد، أجواء و أشياء رآها الطفل سديم في وجوه الناس و تصرفاتهم ستجعله حزين لمدة طويلة.

الخوف، الألم، الضعف و الصدمة عاد بهم إلى المنزل، أغلق الباب و لم يبكي، عانق الساعة و لم ينم، في الصباح الآخر سمِع أحدهم يطرق الباب و لم يفرح. كل ما يدور في رأسه هو رحيل جده المفاجئ، فيسأل إلى أين رحل؟ و لماذا؟ الصدمة فقط دون أي تفاعل مع أحد من الزوار أو الجيران المحاولين مساعدته. لم يكن يعلم أن الدنيا لن تحترم يوماً سِنَّه أو براءته و ستعطيه أول صفعاتها في هذا السن و في هذه الحالة.

تمر الأيام بين الحزن و أخذ المساعدات من الناس، المبيت هنا و المكوث هناك في منازل أصدقاء الجد. يمر الوقت و لحظاته متشابهة عكس ما كانت عليه في حياة جده. كان كل يوم يسافر به بِعِلْمِه و حكمته في الدنيا و عنها رغم أنه كان صغير لا يفقه شيء. كأنما القدر جعل له إشارة أن الجد سيرحل مبكراً.

أما لآن الصمت و البكاء من يشفيه من هذا الجرح العميق رغم عدم ظهور أي التئام للجرح الذي ظل يظن أنه فقط بسبب أحد الأحلام المزعجة، لكن مع مرور الوقت تجعله الأيام يعرف أنها قسوة الحياة من جعلت ألمه هكذا.

قبل سنوات من ولادة سديم كان الجد زهاك كان أب الشاب" شعيب"، الشاب الذي كان يعيش في هيام حبيبته "نور" التي كانت تبادله نفس الحب، لكن الدنيا لم تعتبر هذا الحب أو تنظر له كيفما كانوا ينظرون له.

بدأ شعيب يدخل وسط رياح حب نور منذ أول يوم التقاها عندما كان في رحلة فنية مع أبيه إلى مدينة "[3]نموليكو" عندما كان زهاك من الناس المدعوين إلى الحفلة العالمي الفني تحت عنوان " رواد الفن العالمي". حضر هذا الحفل أكثر من عشر آلاف فنان عبر العالم و كان زهاك من ممثلين الكتابة الإبداعية حيث قدم في هذا الحفل مقدمة رواية عن "الكتابة" تحت عنوان " إنها لغة الأرواح".

كانت نور من ممثلي الفن الموسيقي بصوتها الذي أسكت أكثر من عشر آلاف شخص داخل قاعة الحفل بأغنية هادئة تحمل عنوان "الحياة فرصة و الموسيقى استغلالها". لكن صوتها جعل أوس يضع عنوان هذه المعزوفة في لحظات حياته و هو الشيء الذي جعل الفكرة التي تدور في رأسه طيلة ما تبقى من الحفل هي "الحياة "نور" و تعارفنا عيشها"، كان شعيب في ذلك الوقت في سن الحادي و العشرين، لم يكن يهتم بالحب قبل سماع و رأيت نور، كان يدرس في مدينته القانون العام و حُلمه أن يصبح أحد ضباط البلاد، لكن عندما حض حفل رواد الفن العالمي، أُضيف في عقله هدف جديد و هو إكمال الحياة مع نور والموت على ألحان صوتها و هي تغني.

---

3 **نموليكو**: اسم مدينة من وحي الخيال.

كان زهاك أكثر من أب و صديق بالنسبة لشعيب لذلك لم يتردد الأخير في الحديث مع أبيه عن شغف حبه لنور، فور أن انتهى أول يوم من الحفل، خرج شعيب و أبيه إلى المدينة يتجولان في مناطق أقل ما يقال عنها مُلهمة، و بدون أي مقدمات للحديث في الموضوع قال شعيب:

" أبي، إني أحببت الفتاة التي ألقت صوتها بأغنية الحياة فرصة والموسيقى استغلاله، و إنني أريد أن أتحدث معها قليلاً غداً. هل لي بأي معلومة عن أهلها أو ثقافة محيطها إذ كانت لديك فكرة؟"

زهاك: "من المخاوف التي أواجه عندما أجد نفسي في انفتاح معك هو أن تناقش معي يوماً ما موضوع كهذا. لكن لا بأس بجرأتك هذه لكنني آسف يا بني، أظن تلك الثقافة لا تناسبنا. المشكل ليس نحن بل تفكيرهم، لن يوافق أب من تلك المدينة على أن يزوج ابنته لغير فنان".

استغرب شعيب و صرخ قائلاً و هو غير مصدق لما قال أباه:

"لماذا هل تاريخ قديم من معتقد أو عادة غريبة من يتحكمن في هذا أم ماذا؟"

يجيب زهاك محاولاً تشكيل بعض الهدوء في تصرفات ابنه:

"نعم يا بني، إن عقولهم تحمل معتقد ديني و ثقافي يقوم على الحفاظ على الفن بأي طريقة و الزواج من الأشياء التي تعطي في مجتمعهم ثمار الفن. و أنت تريد أن تصبح عسكري يا ابني. لا بأس إن ما تشعر به مجرد حركة تقوم بها غريزتك".

لا يتقبل شعيب ما قاله أباه، لأنه أفرط في التفكير في الفتاة لدرجة جعلته غير قادر التفكير في المستقبل دون استحضار صورتها. وقف قرب شجرة كانت في البستان الذي فيه يتنزهان و قال:

"ما رأيك إذ كانت مختلفة عنهم؟"

ابتسم زهاك بعد قول ابنه الأخير و هو ينظر إلى بعض الزهور الجميلة هناك و أجابه:

"إن كانت، فالمسؤولية ليس في يدها يا بني، الوالدين من يقبلون زواج ابنتهم، لكن كما أعلِّمك دائماً؛ هناك دئماً أمل في الفرصة؛ إذ كنت قادر على مواجهة عائلة ذات معتقد، ثقافة و تفكير مُعقدين".

لم تبقى روح شعيب بتلك الحيوية و الحماس عندما سمع من أبيه عن ثقافة مدينة "بومجا"، لكن شخصيته العنيدة جعلته يثق في نفسه و يتصور أمر زواجه لنور سهلاً و ليس كما وصفه أباه.

في اليوم الآخر جلس أمام قاعة الحفل ينتظرها لكي يحاول أن يصنع حديثاً معها يعطيه فكرة عن ما يحمل عقلها من ثقافة و معتقد. فجأة رآها آتية منورة مرتديتاً فستاناً أسود، وحدسه يقول له أن ليس ما ترتديه هو الأسود فقط.

بأساليب جذب حيوان الطاووس تَشَبَّه شعيب الوسيم و تمكَّن من الجلوس قربها داخل الحفل بعد محادثته لها، بعد الكلام الاستعراضي سواء من شعيب أو من نور صارح الذكر الأنثى بإعجابه و اهتم بها طيلة يوم الحفل، اهتمام جعلها تشبِّهُه بأنه الملك الحارس الذي أنزله الإله لها في هذا الحفل، و هو في نفسه يقول: أريد أن أصبح حارس لحظات حياتك كلها.

وجد منفذ بين الحديث للتحدث عن موضوع الثقافة و قال و هو ينظر إلى عينيها مستنشقاً رائحة طيبة كانت تفوح منها:

"تحدثت مع أبي مساء الأمس عن ثقافة مدينتكم، روى لي شيء لم أفهم سبب وجوده و تبنِّيهِ لكم".

أجابت نور متسائلة دون أي قلق:

"ما هو؟"،

أجابها شعيب: "أتحدث عن توريث الفن بطريقة متعصبة، أي فرضه في الزواج".

أجابت نور و هي مبتسمة لشعيب الذي لم يغير نظراته لعين الفتاة بعد.

"دعني أسألك عن حلمك و أنت في هذا الحفل رغم أنني أرى في تعابير وجهك الطموح لكي تصبح فنان، أليس كذلك؟"

أجاب شعيب بقلق جاعلاً عيناه تنظر إلى منصة الحفل: "لا".

فقالت نور مستغربة:

"و ما الشغف الذي يجعلك تستمر في الحياة؟"

تمالك أوس نفسك بعد تفكيره في قول: ما يجعلني أستمر في الحياة هو رغبتي في إكمال حياتي معك. وركز على الاختلاف الذي يناضل من أجله و قال:

"أريد أن أصبح ضابط عسكري، هذه وجهي".

يستمر استغراب نور عندما تسمع ما قال شعيب و تقول:

"هل تظنني سأثق في كلامك هذا، الكثير جعل مثل هذه القصة حديث بيننا لأنه يعرف أنني مختلفة عن تفكير ثقافة موطني. أباك كاتب وعالم معروف، وإن رفضت حلمك كي تصبح مثله فأنت ظلمت مستقبلك قبل أن تظلم أباك".

لم يرضى سديم بما قالته نور له رغم اعترافها أنها لا تفكر كيفما يفكر أهلها، لكنها وصفته بالخسيس يشبه أي ممن حاولوا التقرب لها. وبآداب كما علّمه أباه استأذن منها الخروج رغم أنه لم يكن يهتم بإذنها و خرج.

في الليل التقى بأبيه وحكى له ما وقع بينهم. ضحك الأب على ابنه و على حالته و أخبره أن الغد سيغادرون المدينة، لكن الابن رفض ذلك بحجة أن الفتاة فعلاً غير تابعة لثقافتها. أخبره أباه أن ما فعلته يشبه ما يسمى "رجل بروكرست"، وأن "[4]البروكرستية" مصطلح أتى من ثقافتهم أيضاً، و من الصعب أن يقنعها بكل ما يفكر به.

أخذ شعيب يتحدث عن الفتاة محاولاً استنتاج محاسن الفتاة و عرضها على أباه و هم يقومان بجولة صغير في المدينة، كان زهاك يجيب بتحذيره من فخ الحب؛ وهو أن يجد شيئاً مما يتمناه موجود فيها و يقول أن الأشياء الأخرى توجد أيضاً.

لم يعد الابن متمسك في البقاء في مدينة الحفل وقرر الرحيل مع أباه الغد. لكن رحيله كان في سبيل الوصول لما لم تثق به الفتاة.

مرت أيام شعيب بعد الحفل بين التعاليم المقدمة من طرف أباه و في الكثير من اللحظات يتصور يوم يقف أمام الفتاة مُبيناً لها صراحته في حبه لها. و بدون مقدمات من القدر جاء هذا اليوم الذي كان فيه شعيب الضابط العسكري المكلف بعمليات الدفاع في حرب مدينة "[5]بومجا" بعدما أعلن

---

4 **البروكرستية:** شخصية من المثيلوجيا اليونانية، حيث كان حداداً وقاطع طريق من أتيكا، كان يهاجم الناس ويقوم بمط اجسداهم أو قطع ارجلهم لتتناسب طول أجسامهم مع سريره حديدي. يطلق لفظ البروكرستية أي نزعة إلى «فرض قوالب» على الأشياء (الأشخاص أو الإفكار..) أو لي الحقائق أو تشويه المعطيات لكي تتناسب قسراً مع مخطط ذهني مسبق.

5 **بومجا:** اسم مدينة من وحي الخيال.

الشعب الانقلاب عن الحكم المستبد باغتيال الراعي من طرف أحد متمردي راعيته.

تدخلت القوات من شتى العالم لإنهاء الحرب في المدينة باعتبارها الذاكرة الفنية للبشرية. كان شعيب المسؤول عن المنطقة الجنوبية و بصُدفَةِ سخرية القدر وجد شعيب نور لحظة من لحظات الإعلان عن الهدنة و هي تناشده لإنقاذ أبيها المصاب جرَّاء قصف جوي أسفر عن سقوطه من أعلى المبنى. لم تعرفه لكن عرفها، لم تنتظر مساعدته لكن ساعدها، لم تنتبه لكل اهتمامه بعائلتها لكنه استمر في ذلك. في الأخير بعد أن ساعد أباها تذكرته عندما فتحت عيناه بعدما أغمي عليها بسبب جهَلتْه، لم تتمكن من التحرك لأنها كانت مقيدة لم تعرف أين والديها و لا أين هي، لم تجد في جانبها سوى رعاية شعيب التي أنستها الحرب.

"غايتي تبرر وسيلتي"، هذه هي العبارة التي جعلت شعيب يقرر خَطف نور بعيداً عن أنظار عائلتها. أساء استعمال سلطته لكن في سبيل حبه و حلمه الذي لم يتوقف عن التفكير فيه منذ الحفل الذي حضر مع أبيه، بعدما حقق الحلم الأول و هو أن يصبح ضابط عسكري، هو الآن يحاول تحقيق الثاني و هو الزواج من نور، لكن هيهات، بسبب عدم معرفته الدقيقة لنور و عائلتها التي كانت تملك المال و السمعة و الجواسيس في جميع بقاع العالم حُكِم على شعيب بالإعدام، بعدما عاشر نور لمدة سنة و نصف.

أكثر من سنة و نصف أحبَّته و زاد حبه لها، عاشت معه الكثير مما كانت تحلم بعدما أقنعها بشخصيته و أسلوب حياته، تمكنا من الإنجاب أيضاً، لكن بسبب كذبة اعتبرها شعيب بيضاء من الماضي فيما يخص كيف التقى نور أيام الحرب جعلت الأخيرة تقرر أيضاً الانتحار بعدما عرفت الحقيقة من من

والـديها و هي أن شـعيب قـام باختطافهـا و ليس بغيـة حمايتهـا من عـدو قتـل والديها و يريد قتلها هي الأخرى.

لم تُقَدِّر نور كل ما فعله أوس من أجلها لأنه سلبها والديها مدة طويلة بحجة أنهم ميتـون من أجلـه و لم يفكـر فيهـا و في ولـديها، ذهبت إلى زهـاك و أعطتـه ابنهـا "سـديم" لتجعـل بدايـة حياتـه عبـارة عن مقـبرة أبـاه المعـدوم و أمـه المنتحـرة، و تجعل الجـد زهـاك حـزين و معـزول مـع حفيده الرضيع سـديم في بيتـه بسـبب فقـدان ابنـه و خليلـه الـذي كان ضحية غبـاء ما يسـمى "الحب"، لكن زهاك سيعيش قصة مشوقة، بعيداً عن حزن موت ابنه.

بعد سنين مما حدث يُضاف الجد إلى قائمة الموتى في مقبرة سديم و يجعل روحه التي من المفترض أن تكون مرحة غارقة في أحداث الحزن و السؤال دون جواب بعدما رعاه جده أربعة عشرة سنة. بعد الحزن و اليأس و الفرح اللحظي لمدة سنتين، مؤكداً القدر أن الابن شبه أباه لكن لحسن الحظ ليس في كل شيء، حيث عيناه زرقاوان، حركته بطيئة و نظرته حكيمة، نحيف و طويل القامة. يعيش على المال الذي تركه جده مع المساعدات التي لم يكُف أصدقاء زهاك على تقديمها.

استيقظ يوماً و قال أن لابد من حل لحاله و أن لا يبقى يعاني و يُعَذَّب هكذا، و أول خطوة تُمهد قصة هذا الشاب كانت في اتجاه غرفة جده التي فيها كانت أيضاً أغراض والده، بدأ يبحث عما هو لا يعرفه، يبحث فقط و في نفسه ظن حول إمكانية وجود شيء يحسن حالته بطريقة تشبه الصياد اتجاه قاع البحر؛ يبحث و لا يعرف إذ كان ما يريده هل يوجد أم لا.

فجأة، و هو يبحث بين بعض الكتب كبيرة الحجم سمع صوت أحدهم يطرق الباب بقوة، لكنه لم يبالي له، لكن حصل شيء جعل تفكيره يقف و عقله يقرع الأجراس؛ فقد لاحظ أنه كلما ظل يقلب صفحات كتاب ما كلما صوت الباب يرتفع. خرج باستياء ظناً منه أن شخصاً ما من أصدقاء الجد من جاء ليطلب منه المجيء معه لاحتساء مشروب أو تناول وجبة في مقهى قرب البيت، لكنه فتح الباب و لم يجد شخصاً. اعتقد أنه فقط يتخيل لأنه كان يتخيل مثل هاته الأحداث كل يوم بعد وفاة الجد. عاد إلى الغرفة و أكمل البحث بين الكتب و الصور حتى وجد كتاب لجده بعنوان "شعيب و نور". عرف أنه يحمل أهم أحداث حياة والديه و يمكن أن يحمل أيضاً سبب وفاتهما، أخذه و خرج من الغرفة ليكمل يومه كباقي الأيام.

في المساء وجد نفسه أمام كتاب يشهد زوال الشمس، عزم على قراءته ذاك المساء مصحوباً بعصافير الحب التي اشتراها لتكون أنيسه في عالمه الاستفهامي. فتح أول صفحات الكتاب ليجدها على شكل تعاليم لمن يقرأ الكتاب؛ "لا ضمانات في الحياة، عندما سيرحل الكل ستجد ما بنيته في ذاتك فقط. الالتزام، الدقة و القوة أشياء تحتاج إلى التدريب و تدبير الوقت. كن متعدد التفكير مثل أباك ولا تكن بروكرست التفكير مثل أمك. في البداية، فكر، افرح و حزن من أجل النجاح و ليس فيما يحدده و ما النجاح إلا أن تكون في سلام داخلي و راضي على ذاتك و أي ما تفعله. ابتعد عن ما يقدسون الناس في مجتمعنا!..."

؛"الرسالة رقم 1: لا ضمانات في الحياة".

قرأ الرسالة الأولى التي سرد فيها الجد زهاك الحدث الخطأ الذي قام به ابنه وهو ظنُّه أن سلطته ستضمن له حب نور. و وجه له الكلام الذي يحمل العبرة و الحكمة لكي لا يفعل أمور مثل هذه في حياته و هو شاب.

"الرسالة رقم 2: عندما سيرحل الكل ستجد أن ما بنيته في ذاتك هو المتبقي فقط".

كتب الجد هنا عما كان يعيشه عندما أمر قائد القوات العسكرية للمدينة بإعدام ابنه بسبب ما قام به، عرَّف به معنى الحزن و معنى أن يتبقى لك إلا ذاتك و كُتبك فقط. أمر فيها سديم أن يبني شخصيته دون أي ضمانة يمكن أن تتمثل في شخص ما، مع الأخذ بالمساعد و الانتقام إذ وجب ذلك.

"الرسالة رقم 3: الدقة و القوة أشياء تحتاج إلى التدريب و الوقت".

قال الكاتب و العالم في هذه الرسالة: "سيكون هناك يوم ستكتشف فيه ما تريد بناءه و ما تحاول القيام به لكن ستواجه صورة صعوبة الوصول إلى كل تلك الأشياء، سيكون لك هدف و رسالة في حياتك، ستريد أن تستيقظ من النوم الذي أهداك هذا الحلم، فاعلم أن القوة و الدقة التي ستمكنك من ذلك تحتاج إلى صبر و تدريب وسط انعدام الرحمة من أعدائك؛ الوقت و عقاربه.

غربت الشمس و حل الظلام لكن أضاء الكتاب شمعة لسديم و هو يقرأ هذه التعاليم من جده له و يشعر بشيء ملهم و لطيف عندما وجد أن جده يوجهه في كتاب و هو ميت كما كان يفعل و هو حي بكلامه له. يستمر في القراء و رائحة برد الليل تنعش رئتيه مستنشقاً الهواء متنفساً الصعداء:

"الرسالة رقم 8: كن متعدد التفكير مثل أباك ولا تكن بروكرست التفكير مثل أمك".

"الرسالة رقم 9: إياك و قبضة الشبح، سديم مهما كان يحدث في حياتك، كن مستقل و لا تجعل سبب ابتسامتك شيء رخيص يصدر من الخارج. "كن أنت الأصل لنفسك، ستفهم **يوماً** ما أقوله".

بعد الرسالة الثالثة و التي جاءت بداية لإعطاء النصيحة و الموعظة للابن سديم سرد الجد تقريباً سيرته الذاتية و أهم مشاهد حياته، كانت الرسالة الثامنة آخر سطور التوجيه، التي عاد الجد بها إلى حياة ابنه و زوجته حيث ذكر كيف كان يتعامل شعيب مع أمور الحياة و كيف كان يقبل أي تفكير يكون قد يطور من حياته. ونهاه عن ثقافة أمه التي كانت منعزلة، متشددة و لا تقبل الآخر.

بعدها جاء قلم الجد لرسم صور معاني رسائل كالتي سبقت، جاء القلم مجدداً يرسم صور أخيرة حملت صفات شخصيات كوصية له؛ ستساعده في حياته و

تقدم له الدعم المادي و المعنوي الذي يحتاج. دخلت إلى باطن سديم كل النصائح إلا ما قاله الجد في الرسالة التاسعة عن الموسيقى فأبى سديم الابتعاد عن أنيسه و ظل يدمن استماع الموسيقى و جَعْلها ملجأه و أنيسه.

ضم الكتاب إلى صدره بعد نهاية قراءته و في عينه أشعة ضوء ناتجة عن فتح باب في باطنه من طرف أسلوب صياغة كلمات وصايا جده التي أصبحت منحوتة في تصرفاته.

نهض و الدمع في عينيه يقول:

"فتحت يا جدي لي باب النور وأخرجتني من الحفر التي كدت أن أعيش فيها و تكون الرواية التي تتكلم عن قصتنا تحمل الحزن الناتج عن جهل، لكن لحسن الحظ لم يكن هذا، إن قصتي ستروي أحداث حياتي غير العادية التي رسمتها لي و أنا سأضع ألواني عليها".

عزم بعد الليلة أن يجعل تلك الأشعة الضوئية نجوم تدفئ حياته و تضيءها، بعيداً عن المعنى الذي يحمله اسمه. ثم نام هذه الليلة بعد القراءة دون النظر و التحديق في عقارب ساعة جده التي دام النظر إليها طيلة مدة فراقه لجده.

"صباح الخير أنا حفيد العالم زهاك، اسمك و عنوانك كان في كتابٍ كتبه لي الذي نصحني فيه بالتواصل معك"؛ جُمَلْ رددها سديم بعد كل طرقة باب أثناء بحثه في الصباح عن الناس التي وجد اسمها أو عنوانها في كتاب جده. و من طبيعة الحال هناك من استقبله في جو عائلي كأنه جاء رفقة الجد، و هناك من مثَّل أنه لا يعرف الجد أبداً. ناس رأت فيه حامل المشعل التالي بعد الجد، و ناس خافت من حمله لهذا المشعل لأنه يمكن أن يحرق مقدسهم و يحرقهم أيضاً.

اسْتُقْبل سديم من طرف أصدقاء جده الذين كانت بيوتهم موزعة على المدينة الغير مبهجة، المدينة المعروفة بالأغاني الحزينة التي تجعل المدينة أكثر غرابة، مدينة مضت على بناءها فترة طويلة، تحيط بها أسوار عالية، شوارعها واسعة و نظيفة، تُزيِّنها واجهاتُ محلاتٍ تجاريّةٍ مليئة بمختلف المعروضات من اللّباس و بعض المنتجات المحلية.

وجد أصدقاء جده فمنهم من حدَّثه عن العلم الذي كان به يهتم زهاك، و منهم من تكلم بطريقة مبهمة عن علاقته بالموسيقى و ما كان يحاول أن يكتب. الأهم أن سديم عاد هذا اليوم إلى المنزل وهو يعرف أين قد يذهب مرة أخرى. لأن الحزن الكبير الذي كان يسود ظلامه هو انعدام مكان يشعر به بالدفئ، و اليوم قد وجده و رغب للعود له في وقت لاحق.

عاد إلى المنزل، دخل إلى الغرفة المضيئة مرة أخرى و قرر أن يمضي الليلة هناك بين الكتب و الأوراق و الساعات! بدأ يبحث بين الكتب و صوت تصفحه للأوراق كان يوازي صوت طرق الباب مرة أخرة! من يطرق الباب؟ يسأل سديم نفسه و هو يشك في تخيله لهذا الصوت فقط بعد أن شك في تخيله الأمس، لكن الأمس كان حزين و اليوم فرحاً، : "أتكون مشاعري من

تجسد كل هذا عندما عندما تتغير؟" يسأل سديم و الموجات لا تزال تجسد في مسمعه الصوت.

فتح الباب ولم يجد أحد لكنه لم يزعم أنه يتخيل فقط لأن في تلك المدينة الصوت من الأشياء المقدسة و لا يمكن أن يلعب به، ولا يمكن أن تنتج حركة أي شيء صوت فوضوي أو بدون سبب. أغلق الباب و الخوف من تملَّك تصرفاته و أفكاره لأن الدفء الذي كان يحس به بعد المجالسات التي قضاها اليوم جعلته قوي و واثق من نفسه لكن بعد هذه التهيئات عاد شعور الفراغ المظلم إلى عقله يقترب.

ألغى نيته في المبيت هناك، أخذ الساعة و توجه إلى مرقده، بدأ يشكر جده على كل ما علَّمه و أعطاه و هو حي و بعد مماته، و خطفه النوم و هو يخطط لليوم التالي الذي فيه أراد الذهاب إلى صديق الجد زهاك الذي يدعى **"المجنون"** هكذا وجد اسمه مكتوب في الكتاب. إنه شخص أفكار الجد زهاك من جعلت له اسم كهذا. هو من الناس الذين أرادوا سديم حمل المشعل و إكمال مسيرة الجد.

سيذهب إلى المجنون غي الغد لكي يبدأ التعلم منه لأن الجد من أوصى بهذا، و الغرد هو تعليم سديم بعض الأشياء التي يجب عليه معرفتها في سن السادس عشر لكي يكون ذو مستقبل و شخصية يأمل المجنون أن تكون مثل التي كانت عند جده. شخصية ستقوم يوماً بمهمة يشهد لها تاريخ المدينة.

استيقظ في صباح، ابتسمت له كل من العصافير الجميلة بتغريدها و الشمس بسطوعها و وجبة الفطور بلذتها أما الطاقة و الشجاعة أخذهم من مقطع موسيقي! ارتدى اللباس الذي به فقط يَعْرف جدته التي كانت تعشق محاكاة الخيط و الإبرة في وقت فراغها و ما ارتداه كان من صنع يدها.

خرج من المنزل بابتسامة لكل من يراهم من جيران الحي الشعبي، الذي دائماً ما تشم فيه رائحة المأكولات الشهية. حي أغلب منازله مبنية من الطوب، أما سكان البيوت كان من عادتهم المتخلفة الاستيقاظ بمقطع موسيقي و التأمل في الاستماع له كأنه موجود و يستجيب لفعلهم هذا.

استغربوا من ابتسامته لأن منذ وفاة جده و هو في أغلب الأحيان غارق في حزنٍ يجعله في عزلة و رفض كل من كان يريد أن يساعده. سكان هذا الحي أو المجتمع كانوا دائماً ما يتكلمون بعقدة النقص و العار، هو مجتمع يعتبر ما يستحقه من خدمات وتقديرات تقدم له (إذا قدمت) كمنّة أو فضل، لا كواجب مستحق له، مجتمع يعيش على الماضي و يسود فيه العجز المتعلم. كان زهاك دائماً يحاول الابتعاد عنه و هكذا تعلَّم سديم أيضاً، و الموسيقى شكلاً من الأشكال التي جعلت هذا المجتمع متخلفاً.

بسبب لم يقدر على التفكير فيه أو السؤال عنه، وجد الشاب سديم "المجنون" ينتظره أمام باب مكتبته الذي قرر فيها استقباله في مدة تعلمه.

إنه شخص وسيم و طويل القامة، كان يرتدي وزرة عليها كتابة رموز و بعض رقع الألوان. تقريباً هو في سن الجد زهاك أو أصغر منه بقليل، عيناه توحي أنه سعيد لكن حاله يقول العكس. يملك منزل و المكتبة، أسرته المكونة من أربع أفراد آخرين هجرته لسبب سيعرفه سديم إذ سمحت له الظروف، و بعد بقائه وحيد أصبحت المكتبة عائلته ومنبع نور الحنان لديه.

هي مكتبة كبيرة، ضخامتها التي أعطتها تلك الجمالية، فور النظر إلى أعلى المكتبة تلاحظ بعض الغبار و العناكب في التي أخذت المرتفع مكانها، آلات غريبة لكن النظر إليها يوحي أن استخدمها مَرِح، هدوء مخيف و صور لكُتَّاب كبار على جدران المكتبة، لوحات الفن التشكيلي كثيرة كأنها هي التي تقرأ

الكتب، لكن لوحة واحد فقط من أخذت بصر سديم و جعلت مشاعره تنقلب و تعود لحالها المستقر، هي لوحة ليس البشر من رسمها قال له المجنون! ثم عادت مشاعر الخوف و القلق إلى سديم و قال مبالغاً له: "ومن رسمها؟ أظن جماليتها و تعبيرها مَلَك من قادر وضعهما"، لم يجب المجنون بأي شيء عما قاله سديم بل طرح جواب لسؤال كان ينتظر طرحه و هو عن سبب نعته بالمجنون، قال؛ "أحمل اسم المجنون ليس لأنني أتصرف مثل المجانين أو أعاشرهم، لكن عندما صاحبتُ جدك خلال عامٍ كان يمثل عام المعرفة والتفرغ للاكتشاف مع بعض المشاكل، نَعَتني الناس بالمجنون عندما فكرنا تجربة شيئاً ما.

استمر الحديث بين المجنون و سديم عن المكتبة الكبيرة و عن حياة المجنون غير المفهومة، فقد حاول إعطاء فكرة عن ما كان يحدث في الماضي و انتقل إلى الحاضر معبراً عن افتقاده لزهاك.

استمرت ملاحظة سديم للأشياء التي تجذب انتباهه دون السؤال عنها، منها كتب الجد زهاك في علوم الاجتماع و أيضاً كتب المجنون. انتهى اليوم و عاد سديم إلى المنزل و فيه من الغبطة ما يُسعد شخص فراقه حبيبه إلى الأبد.

"إذن يا سديم هل لك حلم"؟ من أولى الأسئلة الصباحية من المجنون لسديم بعدما قضى سديم الليل منتظر قدوم هذا الوقت للعودة للمكتبة، جاء الصباح و عاد سديم إلى المكتبة؛ يسأله المجنون و يأمل أن يكون جوابه شيئاً ذو قيمة. لكن الجواب لم يكن مُنتظر:

"لا يا سيدي، لا أملك أي نظرة للمستقبل فمنذ أن رحل جدي أصبحت تعيس أعيش في ماضيه و ماضي والدي و نسيت حياتي، بعض الأحيان أقول أنني أريد أن أصبح طبيب، لكن لا أظن أن هناك طبيب سبق أن مرض مثلي".

كانت إجابة سديم سيئة بالنسبة لما كان ينتظر المجنون و لم يراعي للظروف و أن هذا اللقاء سيكون أول توجيه لسديم بما هو يريد.

ينظر سديم إلى الأوراق الموضوعة فوق المكاتب و التي تحمل رموز و حروف مكتوبة بطريقة جميلة. إلى جانبها مجموعة من الساعات مختلفة الحجم واحدة منهم تشبه الساعة التي ترك له جده و أنيسه في عزلته. ليسأل بطبيعة الحال عن ساعة مثل التي يملك ماذا تفعل هنا، يستغل المجنون الفرصة و يقوم بزرع أول فكرة و تصوُّر له للمستقبله بإجابته أن تلك الساعة هي من ستساعده ليكون ناجح كبركة من الجد.

أجابه سديم متسرعاً بجمل من كتاب جده الذي قرأ؛ حيث أمره أن لا يجعل في البداية التفكير فيما يحدده النجاح بل في خطوات التي تقود لهذا النجاح، لأن محددات النجاح أشياء نسبية يمكن أن تكون نتيجة تجربة ما أو وسيلة في تجربة أخرى.

بتعجب ينظر الرجل للشاب و على كيفية إتقان ما قرأه من ناحية الفهم و الاستيعاب، يبتسم له بعد قوله العبارة:

"أحسنت، متأكد أن جدك كان يفتخر بك و لو كان معنا لآن لكان لا يزال يفعل". يجيبه المجنون و في نفسه يناجي غضبه الذي يحمل حول موت زهاك: "زهاك إنك العقل الموجه و قد غادرت يا زهاك و تركتني أنا و المهمة و سديم، كيف سأعلم سديم و أقول له أن يتوجب عليه أن يثأر و ينتقم بشِدة لموتك!؟

لم يكن هذا اليوم أول محادثة عما سيتعلمه سديم مع المعلم المجنون، تركه فقط يكمل جولته في المكتبة التي بدت كأنها أخذت عقله عندما يرمي عيناه في منظرٍ ما يجعله يتمتم بشيء لا يُسمع؛ كُتُب و لوحات فنية تعطي جمالية

شعور المشي بين أجمات و رياح تعطي أمل أن الحياة لآن ستتغير و أن زهاك لم يرحل أو كأنه لم يكن.

عندما كان سديم يتجول في المكتبة، شغَّل آلة موسيقية كان في محفظته حيث اختار أغنية اسمها الابن و الأب، بها استحضر سديم ذكريات من الماضي مع جده. أثار هذا الفعل غضب المجنون لكن لم يتدخل و تركه كي لا يستبق المراحل، لأنه تأكد أن يوماً ما أنه سيعرف و سيقوم بمهمة.

في اليوم التالي وصل سديم إلى المكتبة ملاحظاً أن المجنون لا ينتظره، لكنه دخل و تفاجئ بسماع مناداة المجنون لاسم من الأسماء التي وجدها في الكتاب من طرف المجنون، إنها امرأة، فور ظهورها أمامه قال بينه وبين نفسه أنها هي من تستحق لقب المجنونة و ليس المعلم و ذلك بسبب مظهرها الذي لا يسمح أن تقول عنها فنانة تشكيلية أو باحثة رياضيات أو ربة بيت، لكن الغريب أن المعلم قدمها لسديم بوظائف و مواهب تشبه سابقة الذكر.

إنها الأم "ماجنيس" و هي من الناس الذين يريدون سديم أن يصبح مثل زهاك، إنها امرأة ذات كفاءة عالية لكن تناقضها الكبير في الحياة جعلها في سن الأربعين بنتائج ليس بالتي كانت من الممكن أن تحصل عليها لو أزالت ما هو عاطفي و حدسي في عقلها أمام أشياء كالعلوم التي تحتاج منطق و عقل.

تتصرف بغرابة ولا تمانع التحدث إلى نفسها أمام الناس وبينهم. قصيرة القامة و جمالها جعلها مثل زهرة الروند، نظرات تتبادلها مع المجنون لا تناسب أشخاص بسنهم. إنها رغم حيويتها التي تظهر فيها دائماً فإنها تعيش حياة حزينة و فارغة.

إنها أم لثلاث أطفال، هجرها زوجها أكثر من مرة، لأنه من النوع الذي لا يحب أن يكون للمرء رسالة في الحياة و بصمة تبقى بعد الممات. و هذا ما جعله مع

الأم ماجنيس في صراع، لأن الأخيرة لا تكف عن محاولة تطوير حياته بالجري وراء العلم و الصبر على صعوبته. فكان أسلوب حياتها سبب أن يأخذ زوجها الأطفال و يهجر بهم إلى مكان لا تعرف عنه ماجنيس سوى أنه بعيد.

دَعَها المجنون للحضور ليتعرف عنها سديم لأنها ستكون حاضرة في بعض الحصص من التعلم بسبب عاطفتها التي رأى المجنون أن سيكون لها دور في مسيرة تعلم الشاب أمام صعوبة تلقي العلم، إرهاق الصبر و قمع المشتتات. هي الأخرى نظرت إلى سديم نظرة البطل الذي تريده أن يكون في المستقبل شرارة لنار سيقودها.

في ذاك اليوم بدأ المجنون أول لقاء مع "المايسترو المستقبلي" بأسلوب مثل الذي لذا جده، بدأ بإعطاء تعاريف لمفاهيم عن أشياء لم يفهم فيها سديم أي شيء في الأول، لكن عندما يصل إلى مرحلة ذكر سبب تعلم تلك المفاهيم يبدأ سديم بتحريك رأسه بابتسامة نور العلم.

و هكذا أصبحت حياة سديم بعدما كان يستمتع للحظات فقط، فقد أصبح يستمتع طيلة اليوم تقريباً رفقة المجنون داخل المكتبة.

ينتهي توجيه كلام المجنون لسديم كل يوم مع زوال الشمس عن رؤوس الناس، و تمر الشهور و الشاب يأخذ من العلم والثقافة ما يحتاج لكي ينور حياته، مع مرافقته للأم للقيام ببعض الأعمال وهي تردد عبارتها على أهمية أخذ الحدس في طريق الإنسان.

كل شهر كان يحدث شيء يشجع سديم لإكمال التعلم و شيئ آخر يجعله يفكر في التراجع. لكن الاستمرار من فاز في الأيام التالية حتى أصبح سديم لا ينظر إلا لشيء واحد و هو أن يبحث عن رسالته في هذه الحياة و يقوم بها، أيام مرت لم يتكلم فيها المجنون عن الشبح ؛عن أنيس سديم، لم يتكلم

المجنون عن أي شيء يخص مستقبل الشاب الذي لن يختاره بيده. ظل فقط يحدث عن التخلف الذي يعيشه المجتمع فقط.

في يوم لم يكن بالكامل للتعلم، ترك المجنون سديم في المكتبة و ذهب رفقة أحد الأصدقاء من أجل إكمال بعض إجراءات نشر بعض الكتب له. أما سديم لم يعد يشعر بالغرابة عندما يتواجد في المكتبة و بدأ يتجول بحرية، لكن بسبب هذه الحرية حصل شيء زعزع مفهوم المنطق لذا الشاب سديم و غيَّر مجرى هذه الرواية.

من الأشياء التي ركز المعلم في إلقاءها كما يجب لسديم هي الحرية، كان دائماً يردد عبارة "حريتك تنتهي عندما تبدأ حرية الآخر". لكن هذه العبارة كانت تشغل سديم فقط عندما يكون خارج المنزل و المكتبة وليس بداخلهما. في المنزل أو المكتبة كانت الحرية بلا حدود، فعندما خرج المعلم و ترك سديم في المكتبة أخذ سديم يتجول و يلمس أي شيء يراه بعينه، فجأة توقفت عيناه في كتاب يملك مثله في المنزل، حمله بحيوية و خِفة، فتحه وبدأ يتصفح أوراقه، ثم حصل ما كان يحصل مرتين في المنزل لكن دون الانتباه له بجدية. نعم، حركة تصفح الأوراق كان يوازيها صوت أحدهم يطرق الباب، لكن هذه المرة صاحَبَ صوت الباب كلام يشبه صوت الكمان من مكان بعيد بعبارة "حريتك تنتهي عندما تبدأ حرية الآخر".

سقط سديم أرضاً من شدة الخوف و صرخ: "أنا وحيد في المكتبة، كيف لي أن ألمس حرية لشخص آخر و أنا وحيد، كيف، من هناك، ماذا تريد؟!" تزامن هذا الصياح مع رجوع المجنون إلى المكتبة، عرف من العبارات التي سمعها من سديم ما حصل و أن أكبر خطأ في تكوين سديم و توجيهه قد حصل. ذهب يجري إلى الشاب وهو مرتبك أيضاً. حاول الكذب بأنه هو صاحب الصوت و أنه كان فقط يريد المزح معه لكن كان كل شيء واضح.

يقول سديم و هو مرتعب لا يكاد يتنفس:

"ست أشهر و أنا أتعلم منك و كل أسبوع كنت تقول عبارة الحرية السخيفة التي باتت لآن مصدر رعب في مكتبتك الغريبة".

يجيب المجنون بارتباك محاولاً عدم التحدث في أي شيء قد يبعد سديم عنه"

"آسف كان خطئي أن أتركك لوحدك و...

يقاطع سديم الكلام يصرخ قائلاً:

"أنا شاب يبلغ السابع عشر عاماً وتقول لي تركتك وحيد؟ ما ذلك الكتاب؟ من صاحب الصوت؟ ولماذا كنت تقول لي متى ستنتهي حريتي. لماذا كل هذا؟

بدأ الوضع يتوتر أكثر و أكثر في هذه اللحظات، لا يجد المجنون ما يقول بعد المدة الذي قضاها و هو يخبئ القنبلة، لكن اليوم أراد القدر انفجارها. فقال:

"لدي الكثير لأقوله لك و كل هذه المدة منذ أن بدأنا أستيقظ كل يوم أقول أن اليوم سأعترف لسديم بما هو في الطريق إليه، لكن أعلم أنك لن تستطيع الاحتمال".

كل ما قيل من المجنون زاد غضب سديم فقال: "تكلم يا معلم!"، فأجاب:

" سأكون صريح و أرجو إذا أنت تقبل صراحتي، كما كان يحكى لك و أنت تقول أن الناس لا يتفوهون إلا بالكذب؛ لم يكن جدك كاتب فقط بل مارس السحر و جرب أن يتعاون مع الجن و الشياطين من أجل القضاء على الموسيقى التي هي من تجعل هذا المجتمع متخلفاً و الحكمة وراء...

خرج سديم راكضاً يبكي من المكتبة بانكسار و شك حول أي شيء يملكه، خرج و ترك المجنون في المكتبة فقط مصدوم مما وقع، جالسٌ أمام الكتب و الدمع في عينيه، انكسر و ما جاء في مخيلته إلا أن المهمة، الثأر لزهاك و توجيه سديم دهب هباءً منثورا.

دخل سديم المنزل منكسراً هو الأخر يبكي، اتجه إلى المكتبة، جمع جميع الكتب و عزم على حرقها، أخرجها إلى جانب أكبر نهر في المدينة كان وراء منزله و كان سيحرق الساعة أيضاً لولا بداية نمو زهرة من العاطفة التي زرعتها له الأم ماجنيس في شخصيته، حرق كل تلك الأوراق تاركاً كتاب "شعيب و نور" و هو يترقب غروب الشمس و قطيع غنم يستمر في مسيرته.

اشتدت النار داخل قلبه أكثر مما اشتدت في الكتب. يبكي سديم و لا يتفوه بأي شيء يبكي و صورة جده أمامه، الشخص الذي لم يخطر له في البال يوماً ما يخذله. فقد كان الناس المقدسون للموسيقى في الحي و المدينة يقولون له نفس ما قال له المجنون؛ أن زهاك تعامل مع الجن لكي يفعل شيئاً موسيقياً.

عاد إلى المنزل و هو يبكي، رمى الساعة بعيداً عن مكان نومه، استلقى و هو يتذكر كفاحه ضد كل من كان يتكلم عن الجد بأنه سيئ النية.

لم ينم تلك الليلة، أخذ يستمع لمعزوفة غنائية حزينة كما يفعل الكثير من أفراد المجتمع، فالموسيقى عندهم الشيء الأسمى المقدس و هي مخاطب الروح عندما تحزن. أخذ يفكر في كيف أن الجد كان يريد استغلاله و تعليمه ما هو منبوذ في الثقافة و المجتمع و هو السحر، فاستوعب سبب رفضه من طرف مجموعة من أصدقاء جده عندما كان يبحث عنهم. لم يكن من السهل أن يقول سأنسى كل شيئ أو محاولة فعلها، لأنه سينسى كل شيء كمولود جديد سيصبح. لم يكن النسيان حل لكل هذا بل النهاية من فكر أن تكون.

بين مشاعر الخوف و التعثر أمام الموت الذي بدأ يفكر في التوجه نحوه، جاءه الفرج على شكل شخص لم يكن في حياته حاضراً أو في حياة شخصية من الشخصيات السابقة الذكر.

"إليوشا"، إنها فتاة مجهولة، ظن سديم أنها كانت تسكن بمقربة منه لكنها لم تكن تظهر أمامه كأنها تقطن بعيداً و هذا غير صحيح، فقط وجهها مألوف و هي الأخرى ستكذب حول هذا الأمر. لحسن حظ سديم أنها جاءت في الوقت التي كان يعتبره الأخير في حياته؛ جاءت تصرخ و تقول: "لا يا سديم لا تفعل فأنت لا تعرف ما يجب عليك معرفته بخصوص ما جعلك تفكر في فعل هذا، من فضلك لا تفعل". يلتفت سديم ببطء كأن هناك من أجبره على الالتفات و هو يحمل في يده زجاجة يريد أن يجعلها تلتهم ورديه. كأنه ثمل أو حي ميت يلتفت و يقول:

"من أنت و ماذا تريدين، ملامحك مألوفة لكني لم أعرفك، من أنت؟

تتكلم الفتاة بحركة غريبة لا توحي أنها تحاول إغواء أو أنها خائفة:

"أنا إليوشا، لقد سمعت ما كنت تقول عما اكتشفته عن جدك، أو بالأحرى ما أنت في خطأ عن معرفته.

بعينين منفوختين بالبكاء و فم يرتجف بجيب سديم:

"هل أنت رسولة المجنون أم ماذا؟"

يرمي سديم الزجاجة بعد طرحِه هذا السؤال و الفتاة تُتَمْتم تقول:

"المجنون؟ لا أعرف أي شخص بهذا النعت أو الاسم. أرى فقط شخص يمكنني نعته بالغبي.

يضحك سديم بعدما سمع الفتاة تنعته بالغبي و ينزل أرضاً قائلاً:

"غبي لأنني لم أثق بالناس الذين كانوا يحاولون نقدي من طريق جدي، غبي لأنني حفيد شخص كان يعيش حياة انتهازية، غبي إذ فكرت في الاستمرار في هذه الحياة التي من الأول كانت مكتئبة لكني آمنت بالخطأ".

يحمل تلك الزجاجة مرة أخرى و هو كالطفل الصغير؛ يبكي بسبب ما يعرفه و يعرف أن ربما هناك شيء لا يعرفه.

"ماذا ستغير بانتحارك هذا؟" يهمس سديم: "و ماذا سيغير بقائي؟".

الفتاة الغريبة: "الدفاع عن جدك، و تغيير سمعته".

يرفع سديم رأسه ناظراً إلى الفتاة قائلاً:

"غيِّريها أنت إذ كان الأمر يهمك لهذه الدرجة، أما الآن فعودي من حيت أتيت، لأنها النهاية. فالجد الراحل لم يبقى له سوى سديم، وسديم سيتبخر كأنه لم يكن".

فيُصفع سديم بكلام لا يحمله القاموس:

"حسناً، لكن اعلم أنني أحبك."

تلفظت الفتاة إليوشا بشيء لم يسمعه سديم في حياته قط، صُدِم لتصرفها هذا، و بل حتى العاطفة التي بنتها الأم فيه كانت دون فائدة أمام انتحاره. لكنها قالت أحبك، وهي تبكي ثم ذهبت. تجمد جسم سديم في مكانه و لم يعد يتحمل الوقوف وسقط. لم يفهم كيف أنها تحبه لكن الطريقة التي بها خرجت تلك الكلمة من فمه توحي أنها فعلاً تحبه.

فتح سديم عيناه بعدما أغمي عليه، صورة الفتاة و هي تقول كلمة أحبك يتخيلها، لكنه لم يجد سوى الزجاجة التي كان يريد أن ينهي بها حياته، هنا شعر بالرعب عندما تهيأت له الظروف أنه مات؛ أي انتحر و اصبح الميت

الذي يتخيل الأحياء و الحياة. لكنه خرج من وهمه بعدما لمس الزجاجة و عرف أنه لا زال في بلد تقديس الموسيقى يعيش.

أبْعَدَ الزجاجة و قام من مكانه و تسائل من أي مكان دخلت الفتاة المنزل و كيف قائلاً بصوت مرتفع:

"مهلاً، هل فعلاً حدَّثتني فتاة جميلة ترتدي فستان أسود وقالت لي أنها تحبني ولا تريدني أن أنتحار؟ أم فقط هلوسة بصرية و سمعية التي جعلتني أرى الأشياء".

طرح سديم أسئلة و هو ذاهب إلى مكان نومه كأن لم يحدث شيء، لم يهتم لجوابها لأن الانتحار لا يزال ملجأه رغم كل ما حدث. رغم أنه يريد أن يستمر في الحياة، لكن رغبته في الوقوف كانت الأكثر.

"سديم، سديم، استفق أرجوك، أبي سيقتلني إذا لم تجبني، هل فعلتها، هل انتحرت؟ هل تركتني رغم أنك لا تعرف أنني كنت بجانبك دائماً؟ سديم استيقظ...

يفتح الشاب عيناه و يتكرر سيناريو "من أنت" مرة أخرى:

"ماذا هناك؟ من أنت؟"

تجيب الأخرى:

"أنا إليوشا أنا التي منعتك قبل ساعات أن لا تموت و لم تتمكن من إنقاذ نفسها من قبضة أبيها الذي يريد لها الموت و أن..."

يخرج سديم من الغرفة و يخاطب عقله:

"إلى أين نحن نمضي يا عقلي، إلى متى ستظل تهيئ لي كل هذا، الأمس قد عرفت أن جدي شخص منبوذ في المجتمع، و علمت أن حياتك التي كنت تبني قد ضُمِّرت، ماذا هناك أيضاً؟"

نهض سديم من مرقده متجهاً إلى المطبخ باحثاً عن ماء يشربه كي يستعيد وعيه و نشاطه و يبعد هذه التهيؤات من أمامه. لكن الخيال و الصوت لا زال يطارده؛ سديم أرجوك ساعدني.

شرب ماء وجده في كأس ربما كان هناك أكثر من أسبوع، لكن لم يهتم لأمره، و صوت أحدهم يصرخ و هو يطرق الباب؛

إنه شخص غريب أيضاً، يتحرك بطريقة جعلت سديم يشُكُّ في حقيقة حدوث الأمر مرة أخرى. يفتح سديم الباب و ينظر أن هناك شخص ضخم يرتدي الأسود و يتكلم به، له وجه كبير و شارب يشك أن يغطي فمه بالكامل، يصرخ و يقول:

"إليوشا أين أنت؟ أمنزل حفيد الخائن من أصبح مأواك؟ أخرجي الآن!

بكل تلك الصفات سابقة الذكر لم يقدر سديم على تقبل أن هذا حقيقي فقال له:

"ماذا تريد أيها الأبله؟ أتبحث عن ابنتك هنا؟ هل تمازحني أم تريد أن تسرق شيئاً من هذا المنزل اللعين. تفضل، خذ ما تريد و ارحل، وقوفك هنا و أنت تصرخ شيء لا يُحتمل".

بحث الرجل الغريب عن الفتاة لكنه لم يجدها. بسبب الحالة الجسدية و النفسية التي كان عليها سديم، أقر الأخير أنه يتخيل هذا الرجل فقط، فلم

يتحرك ولم ينظر إلى ما يفعله الرجل داخل المنزل، فقط وضع رأسه على الحائط و أخذ يتوسل من عقله أن يزيل كل ما يرى في المنزل.

ظل ينتظر زوال التهيؤ و الشعور الغريب الذي كان يشعر به في جسمه ليعود إلى السباحة في حزنه و هو واعي، لكن أحداث الزمن التي يعيشها سديم لا تمشي إلا **برواية راويها؛** هلع الصفعة التي تلقاها من الفتاة بعد ذهاب الرجل الضخم مَن جعلته يعرف أنه لا يتخيل أو يحلم أو يتوهم الأشخاص، فقد صفعته كأنها تحاول إزالة الروح الحزينة منه:

"سديم! هل جسدك فقط الذي أصبح يتحرك و روحك طارت مع رماد الكتب التي حرقتها؟ أم أنك ضعيف لدرجة أن الصوت الذي سمعت في المكتبة أعاق حركتك و تفكيرك؟"

يتنفس بسرعة، و هو في المكان الذي كانت فيه لوحة تشكيلية لوجه جده، لا يعرف هل الواقع الذي عرف من المجنون أو الوهم من سَبَّبَّ ما جعل عقله هكذا:

"لآن بعد الألم الذي أحس به في وجهي سيحُق لي أن أسألك من أنت؟ و كيف تعريفين أمر الكتب التي حرقت؟

تجيب الفتاة و الغضب فيها مشتعل:"للمرة الألف أنا إليوشا ابنة الضخم اللعين المسمى" باروق".

أخذ الاثنين يتحدثان لآن في نفس السياق وعلى مستوى واحد:

سديم:"لماذا تتكلمي عن أباك هكذا؟"

الفتاة: "إنه يطاردني ليعاقبني".

سديم:"و لماذا العقاب؟"

الفتاة: "لأنني دخلت إلى منزلك لوحدي و قدَّمت لك المساعدة لشخص ينعته بحفيد الخائن".

بابتسامة حزينة يقول سديم:" و ما خطأه أو خطأ الفئة من المجتمع التي تقول هذا؟ هيا بنا، سنذهب لأبيك سأتحدث معه، يجب أن يعرف أنك مخطئة مثلما أنا مخطئ ".

أخذ سديم يد الفتاة ذات البشرة الناعمة و زعم أنه سيذهب بها و ينهي كلامه معها و ينهي حياته، لكن صاحبة البشرة الناعمة كانت قوية لدرجة أنها هي من أمسكت به و ردّته إلى حالته الأولى:

"كأن وجهك يريد صفعة أخرى؟ أقول لك أن أبي يريد أن يقتلني و هذا أرحم العقاب".

لم تتردد و صفعته مرة أخرى، لكن هذه الصفعة الأخيرة أغضبت سديم و صرخ في و جهها قائلاً:

"لا أريد مساعدتك، اذهبي إلى أبيك يقتلك أو يصلبك، فأنا لا أهتم حتى بحياتي و أنت تسألي عن اهتمام بحياتك أنت و ما يريد أباك بك أن يفعل".

بنظرة صدمة ترجو بها مساعدته تتكلم الفتاة و تقول:

"أنا الذي بكيت عندما مات جدك، أنا الذي كنت أفكر في حالك عندما كنت ترفض أي مساعدة من الجيران. أنا الذي أعرف كتب جدك كثيراً لأنني كنت أستمع لك و أنت تقرأها. أنا الذي شعرت بما كنت تشعر عندما لا تجد مكان تذهب إليه وتبكي وتعانق ساعة جدك، أنا و أنا...

سديم حتى لآن على طبيعته يتصرف، لكنه شعر بذنب كالعقرب بعدما تلسع شخصاً لأنها تصرفت على طبيعتها و لم تظلم. فبعد هذه العبارات من الفتاة

التي تقول كلام لا يعرف هل هو حقيقي أم لا، حاول اصطناع بعد الهدوء و التفكير بعد شعوره بأنه ظلمها في كل ما تقول رغم أنه شيء مبهم. أما الفتاة فظلت في مكان بنظرة تشبه التي يملك "[6]اللوريس البطيء":

"أحببتك منذ الطفولة، لا أملك أخ أو صديق غيرك. منذ ذلك الزمن و أنا رفيقتك".

تذكر سديم كلمة "أحبك" التي استلمها مسمعه قبل. هدأ وأخذ يدخل الهواء لرئتيه، جعلته كلمة أحبك أن يرتكب خطأ عندما أراد أن يعانقها لكي يخفف من حزنها و خوفها لأنه يدرك كثيراً معنى عدم امتلاك شخصاً ما مكان، إنسان أو وطن يذهب إلي، لكن هذا الحل جعلها تنفجر عليه و تتسلط كالبركان:

"ابتعد عني و لا تلمسني! أتريد أن تعانق شخصاً لا تهتم لحياته؟ لا ترحمه ولا تستمع حتى لما يريد أن يقوله لك. حقير، يا ليتني أبقيت معرفتك بعيدة".

انقلبت الأمور و أصبح سديم من يريد تهدئة إليوشا و ليس هي من تحاول مساعدته، فما باستطاعة سديم أن يفعل سوى أن يستمر في تهدئة الأمور:

"يمكنكِ البقاء هنا حتى تهدئ الأوضاع، وسنتحدث إلى والدك، لكن يجب أن نتفق على شيء ضروري، ليس اتفاق بل توقيف محاولتك لتغيير فكرتي عن جدي و ما كان يفعله و ما أراد بي أن أكون عليه.

---

6 **اللوريس البطيء** من ألطف الحيوانات التي يمكنك أن تشاهدها في حياتك، بوجهه الطفولي ونظراته البريئة التي توحي لك بالطيبة وقلة الحيلة مع بطء في الحركة تضفي عليه مزيداً من دماثة الخلق، من فئة القرود وهو جميل جداً في مظهره الخارجي لكن ما لا تعرفه أنه يلدغ بمادة سامة وخطير جداً.

أجابت إليوشا بأنها وافقت على ما قال رغم أن عيناها الكبيرتان لا توحي أنها لن تحاول أن تناقش هذا الموضوع مرة أخرى. أما سديم إلى المطبخ ذهب يحاول طهي أكل للضيف.

الفصل الثاني:

إليوشا

إحساس غريب هو كان يشعر به سديم عندما يرى كيف يتحرك في بيته و هو يستضيف شخصاً ما. إنها إليوشا القوية التي يزعم سديم أنه لم يكن يعرفها إلا بنظرات عادية، لكن هي تقول أن كانت لها نظرة معرفة به جعلت المسكين يقول أنها في مصيدة حب معه.

مرت ثلاث أيام من الشهر الأخير لفصل الشتاء، في البيت سديم مع إليوشا التي لم تكف على التحرك بغرابة، في كل مرة يعم فيها الصمت سواء أن يتكلم سديم عن الطفولة و الأيام الجميلة التي كان يعيش قبل وقوع حادث المكتبة أو أن الفتاة تعترف أنها كانت تقضي أوقات يومها في تخليها لأحداثٍ مع سديم في مكان واحد و لوحدهم بعيداً عن الناس أجمعين، و تؤكد أنها كانت تتخيل فقط لم تكن تظن أن يوماً ما سخرية القدر ستجعلها معه.

لم تكن خائفة أو مرتبكة بتواجدها مع شاب لوحدهم، فقد أَلِفت الصورة و هي تتمناها قبل حدوثها.

سألها سديم عن الموسيقى؛ هل ترغب في الاستماع إليها، فرفضت بطريقة جعلت سديم يستغرب من طبيعتها عندما أجابته:

"أهل مظهري يوحي أنني أتعذب في الحياة؟ أم أنني من فئة [7]العجز المتعلم؟ كيف لك أن تجعلني ضيفك بشيء كالموسيقى؟ إنني لا أنتمي لعالمك حيث الفرد لا يتقبل الكارثة أو الهزيمة، أو الخطوب أو الفشل كأمر واقع، ولا يستطيع الاعتراف بمسؤوليته المباشرة في ما حلّ به. إنه إما أن

7 **العجز المتعلم:** هو سلوك نموذجي للكائنات الحية يحدث عندما يعاني الكائن من استثارات أو محفزات مؤلمة ومتكررة ولا يستطيع تفاديها أو تجنبها، وبحدوث ذلك فإن هذا الكائن غالبا ما يفشل في تعلم استجابة الهرب أو التجنب في مواقف جديدة يكون من المرجح فيها إمكانية الهروب أو التجنب.

يهرب من الواقع أو يلقي اللوم على الآخرين، أو يستجيب بالعدوان، أو يوهم نفسه بأن الأمر عابر".

لم يفهم سديم كل ما قالته، ضف على ذلك الطريقة التي بها تكلمت. فما كان جوابه مرة أخرى إلا باصطناع الهدوء:

"حسناً، لا بأس، لكن هون عليك و لا تتحدثي كهذا فيسمعك شخصاً من هذا المجتمع الذي يقدس تلك المعازف.

لعبة الصمت و التحديق اللحظي ما كانت تسيطر على الجو داخل البيت. قبل أن يبدأ سديم بطرح أسئلة عن حياة إليوشا التي كانت تجيب بسرعة و رغبة كأنها في مخفر شرطة و لا تريد دخول السجن. انتظر سديم أسئلتها، لكن لم تسأل عن أي شيء و هو الشيء الذي جعله يشك أنها تعرفه و يبعد شك أنها تكذب. لكن الشك لا زال عنوان استضافت هذه الفتاة.
كانوا كالطيور يحاولون التعارف بعدما وجد الذكر الأنثى في منطقة نفوذه، لكن الطائر الذكر تحول إلى من الأليف إلى المفترس عندما قالت له الأنثى أن يتحدث عما جعله يظن بجده ظن السوء.

يصرخ سديم مجدداً و له رغبة في الحديث أيضاً. كانت إليوشا تظن أن كلام الناس من أثَّر على سديم، لم تعرف أي شيء عن المجنون، سديم امتنع عن قول السبب و أجاب بأن العَالَمِين متفقون أن استعمال السحر للوصول لشيء ما ممنوع. لأنه غير عادل، و الإنسان يجب عليه العيش بما خلقه الله به و ما كتب له دون البحث عن شرٍ آخر، دون ارتكاب جرائم في حق المجتمع و جريمة في حق ذاته.

تقذف إليوشا بفكرة عن كتب الجد، ليعرف سديم أنها فعلاً تعرفه:

"لقد قرأت كتاب من كتب الجد زهاك الذي كان يتحدث فيه عن رسالته في الدنيا قبل الآخرة".

لا يبالي سديم لما قاله عن الكتاب الذي قالت أو عن ما يحمله هذا الكتاب، فغير مكان نظره بعدما كان ينظر إليها و هم على طاولة الأكل و قال:

"لي في الحياة مدة طويلة قضيت ليلها و نهارها أقرأ كتب جدي، الكتاب الذي تتكلمين عنه اسمه "الجهة الأخرى"؟".

تضحك الفتاة على ردة فعله و طريقة تكلمه عن الكتاب:

"لا، أنا متأكد أن هذا الكتاب لم تقرأه، اسمه "الصمت" و إنني هنا من أجل مساعدتك لقراءته لتفهم عن ما جدك فعل.

يتعجب سديم من كلام إليوشا و يغير طريقة جلوسه بأخرى اهتم بها لكلام إليوشا:

"كيف؟ الصمت؟ هل يتحدث فيه عن موسيقاه أم ماذا؟ فعلاً لم أنظر لأي عنوان بهذا الكتاب، لا أفهم أسلوب كلامه المبهم. تكلمي بوضوح أو اصمتي".

"حسناً، قبل أن يموت جدك، قبل أسبوع؛ زَارَنا في بيتنا حاملاً الكتاب كي يضعه بين يدي والدي ظناً منه أنه صديقٌ أمين كيفما يتعامل معه، و قال له و أنا أتجسس؛ "هذا الكتاب أريدك أن تعطيه لسديم عندما أموت، إنه يحوي كلام أريد أن أقوله له، لكنه لآن في سن لن يستطيع حمل كل أخبار الكتاب و معلوماته. رحل جدك بعد هذا الكلام إلى داره ثم بعد أسبوع إلى الدار الأخرى. أبي لم يكن يريد تسليم الكتاب لك حتى لو أصبحت أب؛ لأنه يحمل أشياء قال إنها خطيرة و كل الناس يمتنعون عن التقرب منها. هذا الحديث عن

الكتاب جعل فضولي يسرقه لأقرأه و قد فعلت، قرأت إلى أن تبقى لي أربعون صفحة لأنهيه، لكن أبي اكتشف الأمر و عاقبني، لحسن الحظ أمي جعلته يسامحني شرط أن لا أقترب من الكتاب أو منك و أي شيء له علاقة بعائلتك. ها أنا لآن في هروب منه لأنني أردت مساعدتك و لكي لا تموت يا سديم، قبل أن أقرأ الكتاب و أنا أفكر فيك و عندما قرأته بدأت أدمن على التفكير فيك. أرجو أن تجعل لي مخرجاً من مأزقي هذا".

لم يتعامل سديم مع الكلام الأخير كالأبكم أو الأصم و بدا أن عقله بدأ ينجذب إلى ما تقوله الفتاة، فضغط بيده ضرباً الطاولة فقال:

"مساعدتك أقبلها لكن مقابل الكتاب. أريد أن أقرأه رغم رغبتي المنعدمة في إحاطي بأي شيء متعلق بزهاك ألبرت".

فرحت الفتاة لسماعها هذا و حماسها دلَّت عليه ابتسامة أخذت سديم يطير بخياله لأشياء استحيا القيام بها، قالت الفتاة محركتاً وضعية جسمها صوب سديم:

"هل هذا صحيح، كيف تساعدني إذن؟ أجاب حفيد زهاك:

"من اليوم يمكنك اعتبار هذا المنزل سجنك حتى يأتي العفو من مالكه أو... لأن جدي اللعين يقول "من راقبك بنظرة خير من ظلامٍ بعيد أَحْسِن له، واجعل في حياته نور كي تراه من مكان قريب". أظنه كان يتكلم عن شياطين سحره، لكن الأمر بدا لي يشبهنا لآن".

ضحك سديم بعدما ذكر كلام جده عن الشياطين، فقال دون تذكره ما صدر في المكتبة من صوت: "مرحباً بك و مرحباً بشياطين زهاك ألبرت". فقد سمعوا ما قال لكنهم يراقبنه بالخير من مكان بعيد، و إليوشا من مكان قريب.

فـرحت الأخـيرة لموافقـة سـديم لإبقائهـا في المـنزل فشـكرته بالفعـل قبلـةً و بالقول:"شكراً لك".

إن الحالة التي عليها سديم لآن تشبه شخص مريض بمرض مزمن عاش بع لمدة طويلة، و خلال الأيام التي فيها يعاني انتشر فيروس قاتل في العالم لكنه لم يخبره أي شخص أن هناك فيروس سينهي حياته، كذلك سديم عاش حياته وحيد لا يعرف عن الجنس الآخر إلا أسماء بعضهن و لآن هو في بيت مع فتاة تقول أنه تحبه.

الخوف من جعل مسافة أمان بينهم لكن الخوف يذهب و لا يبقى، ليته يبقى لأنه يجعلني أكتب أكثر عن الحالة التي ستنقلب عليها حياة سديم بسبب قبلة، قبلة واحد ستجعلني أقف وقفة أصف فيها شعور الشاب سديم لأول مرة يعرف ما هو "وهم الحب"، الحب الذي سيبعدنا عن المجنون و المهمة و أحداث حياة الجد، بسبب وهم المخدر الذي يقدمه العقل بمساعدة الجسم.

طلب سديم من إليوشا التوجه إلى غرفة الطابق العلوي كي ترى المكان التي ستبقى فيه و تنام، أعجبها تصميم و طريقة تنظيم الغرفة و المنزل أيضاً لأنه كان هدية من مجموعة من الأصدقاء للجد كان منهم فنان تشكيلي، نجار، و مهندس معماري؛ فاجتمعوا كلهم في عمل اعتبرنه هدية لأخيهم و صديقهم زهاك.

خرج سديم متمني لها ليلة سعيدة، اقترب من الباب فإذا بها تناديه، استدار فإذا بها تنقض و تقبله و هو مصدوم لم يعرف ماذا أصابه، تعرَّف على إحساس جديد و لم يعرف هل يسأل أم يصرخ أم يبادل الفتاة ما تفعل، تجمد ثم خرج متسرع كأنه يجري لكن بسرعة بطيئة أكثر من أنه يمشي.

إن الفرحة التي يشعر بها المرء عندما يعرف أن هناك من يحبه لا توصف لكي لا تصبح خسيسة كيفما هي، لأنها فرحة تقرب المرء بشعوره بالجنون لكن

سديم لم يشعر هكذا بل أكثر لأن عائلته كان جده فقط الذي كان غالباً ما إلا معلمه الحنون. لآن يطرح كالمهلوس السؤال هل هناك أنثى فعلاً أم مجرد أحداث طفولية. نام و جسمه يرتعش و هو يفكر في أمر إليوشا التي تسلطت عليه.

استيقظ صباح يمكن وصفه كأنه أول استيقاظ له في حياته، على رائحة فطور كاد يقول أنه لن يأكل مثله يوماً، و استيقظ أيضاً على شيء غريب و هو سماعه لمقاطع موسيقية حيث يغني صاحب هذه المقاطع عن حبيبته الذي اشتاق لها كثيراً. لم يفهم تناقض إليوشا بين الأمس و اليوم فاعتبره نفاق كالذي يسود في المجتمع و لم يبالي، دخل إلى المطبخ فقال:

"صباح الخير إليوشا، إنها أول" صباح الخير" أقول و أنت أول شخص أتلفظ بها له".

تبتسم و تضحك لتجعل سديم يسهو من منظرها فتجيبه: "ماذا عن جدك أكنت تراه في الليل فقط أم ماذا؟"

عائداً من مكان خُصص للغسل قال الشاب"

"نعم صحيح دائماً ما كان يستيقظ باكراً و يذهب إلى المكتبة أو لمكان آخر و لا يعد منها حتى الليل".

فأجابه الضيف كأنه لا يعرف أي شيء عن ما سأل:

"لا بأس، صباح الخير سديم".

سديم: "شكراً لك على تحضير كل هذا، كنت أريد تحضيره لأول ضيف لي في المنزل لكني أظن أن لم يبقى ضيف في هذا البيت، الكل أصحاب الدار.

ضحكت إليوشا بعد الكلام الذي قاله و التفتت إليه قائلة:

"أنا سجينتك و لست ضيفتك، لم أتي هنا عن رغبة رغم أن كانت رغبتي دائماً أن أكون هنا.

جلس العصفورين يأكلان وجبة الفطور التي حضرتها إليوشا بالطريقة التي اعتادت أمها تحضير الوجبة، وهما يتبادلان النظرات الأولى الصباحية بابتسامة. أخذت إليوشا المبادرة كي تتحدث، لكنها لم تختار الموضوع الجيد والمناسب عندما سألته عن والديه؛ شعور الحزن الذي دائماً يكون معه رغم سعادته. سألت قائلة:

"هل لك بحديث عن والديك؟ يجيب سديم و هو متفهم طرحها لسؤال كهذا، بجواب اتخذ ما قرأه عنهم في كتاب جده مصدراً؛ يجيب بشيء ليس جواب عن سؤالها فقط بل زاد موضوع آخر في كلامه للمناقشة و هو عن حالتهم هذه عندما يذكر شيئين من الكتاب؛ الأولى الخطأ الذي فعل أبوه عندما أساء استعمال سلطته و خطف أمه ظناً أنه سيعيش معها إلى الأبد، و الثانية عن النصيحة الذي قدم له جده؛"كن متعدد التفكير مثل أباك ولا تكن بروكرست التفكير مثل أمك".

بالنسبة للأولى قالها خائفاً من حالته هذه معترفاً لها أنه تقريباً خاطفها من أبيها و هو لا يريد أن يكن مثل أباه رغم أنه لا يملك سلطة أو ابتز الفتاة على البقاء في المنزل أو كذب عليها كما فعل أباه. أما عن الثانية، أباه كان لا يضع قالب للناس جميعاً كأنهم متشابهين و هو الشيء التي كانت أمه تفعل لذلك قرر أن يشبه أباه و أن لا يظن أن إليوشا ستفعل كما فعلت أمه.

قبل أن ينهيان فطورهم، نهضت إليوشا من مكانها وأحضرت شيئاً من المنزل لم يكن سديم يملك ولو فكرة عن وجوده، إنه بعض النبيذ الذي كان مخزون في الغرفة التي نامت إليوشا فيها، وضعت قارورة من الصندوق على الطاولة و

في عينها تردد و خوف أن تكون ردة سديم غير لائقة، لكن سديم المسكين و البريء كالعادة ينظر و يطرح سؤال ما هذا؟ فَظَنَّت إليوشا أنه سؤال استنكاري عبَّر به عن رفضه لاحتساء بعض الكؤوس، لكن السؤال رافقته نظرة بريئة و حنونة جعلت إليوشا تفهم أنه فعلاً لم يعرف ما ذاك. فأجابته:

"ألم ترى مثل هذه القنينات في المنزل من قبل؟

أجاب: "لا، فالغرفة التي كنت فيها نائمة لم أكن أدخلها أبداً، في حياة جدي كانت مخصص لضيوفه، و في مماته أصبحت مجرد مكان توجد فيه بعض الخردة.لم تجيبي عن سؤالي بعد؛ لماذا أحضرت هذا الشيء هنا؟"

تكلمت إليوشا و هي متعثرة استحياءً:

"إنه مشروب كحولي، أظن أنه قَيِّم جداً لأنه يعود لسنوات فائتة و بعيدة، ربما جدك من كان يخزنه في تلك الغرفة، لربما كان سيكون مشروب الاحتفال بالوصول.

"أي وصول و أي احتفال؟ أظن هذا حرام رغم أنني لم ألتقي تربية عن الدين، لكني شاب يعي ما يفعله بحياته. و ما يجعل الخلق مخالف لما فعله الخالق يعتبر عدم احترام العبد لربه و الجحود بعلمه.

نهضت إليوشا من مكان جلوسها بسرعة بعدما قال سديم رأيه عن هذا:

"حسناً أنت صاحب القرار، سأحضِر الشاي ليكون أثير حديثنا عن ما قلت؛ الوصول و الاحتفال.

احترمت رأيه دون الحديث عن رأيها، لم يفهم سديم السبب، فشكرها على لطفها و احترامها.

منذ ظهور إليوشا في هذه القصة و أنا الكاتب أحاول أن أصف جمالها رغم أن الجمال شيء نسبي و متعدد الدرجات، لكن في مخيلتي إليوشا تملك ابتسامة الملائكة. فسديم، الشخصية التي بدأت حياتها حزناً و عاشت الكثير حزناً تجعلها تلك الابتسامة في سعادة لحظية، لحظة يظنها سديم أبدية.

أحضرت إليوشا الشاي، لكن كأن هذا الشاي غَيَّر مشاعرها و أصبح وجهها يحمل نوعاً من الندم و القلق عن ما يحدث في الخارج و بحث أبيها عنها. لاحظ سديم هذا، و كيف لا يلاحظ و هو تقريباً بدأ يفهم جو ملامح وجهها هل هي حزينة أم تصرخ أم شيء آخر.

الكأس الأول من الشاي كان مخصص للحديث عن حياتهم بشكل عام. عَبَّرَ سديم مع أخذه لرَشَفَات من الكأس على أنه يرى حياته أصبحت بدون معنى، بعدما كان يعتبر جده الشيء الذي به يقف، لكن بعدما سمع ما كان يحاول أن يفعل سقط كل شيء.

و خلال حديثه جاءت في لغة تفكيره لفظة "أحبك" التي قالتها له و هو يحاول الانتحار. لكنه لم يكن يملك كامل الجرأة ليتطرق لهذا الموضوع. أما عن إليوشا فكانت ذات الجرأة الأكبر عندما تحدثت عن طفولتها وهي تتمنى اللعب معه لفترات طويلة، متطرقة لموضوع عائلتها التي عبرت فيه عن أهمية وجود كل طرف في حياتها. و تحدثا أيضاً عن كتاب من كتب الجد زهاك، قال سديم طارحاً الموضوع:

"ذكر جدي في أحد كتبه و هو يناقش موضوع المعنى في الحياة أنه يتوجب طرح سؤال لماذا؟ لتبيان المعنى في أمور الحياة، وإلا سيتم طرح سؤال كيف؟ و هو الذي يحمل إجابة سهلة و مشتتة عن المعنى أما لماذا صعبة الإجابة و موجهة للمعنى".

الكأس الثاني في وقت الظهر كان جرّيء نوعاً ما، لأن العصفوران لم تبقى بينهم مسافة بعيدة كما كانت أثناء احتساء الكأس الأول فقد اقترب سديم منها عندما بادرت الشابة بسكب الشاي مرة أخرى فور انتهائه. اقترب بجرأة و هو يسألها عن معنى كلمة أحبك دون ذكر أنها قالتها له في اليوم السابق. و لربما هذا السؤال من سيجعل قصة حب "وهم" تبدأ، لم تجيب إليوشا عن السؤال فور سماعه، أخذت تنظر بعينها إلى الطاولة كأنها وجدت صعوبة في صياغة جواب لهذا السؤال. رفعت رأسها و هي تقول:

"كما قالت لي أمي سابقاً في حديثنا عن نفس الموضوع؛ إن الحب شيء غير مفهوم، ربما هو توهم فقط، لكنه موجود عندما يكون متبادل بين شخصين يعترفان بوجوده، هو مختلف من حيث الاعتبار من شخص لآخر و من سن لآخر. لا يمكنك الحديث عن الحب و أنت لا تعيشه أو عشته قبل فالحب هو الحاضر أما أشياء الماضي ما هم إلا ذكريات و المستقبل هو صاحب الأمنيات".

كان جواب إليوشا بالنسبة لسديم يشبه الكلام الذي كان يسمعه من الأم ماجنيس أثناء ذهابه إلى المكتبة و أثناء مرافقتها خارجاً. لكنه سألها مجدداً:

"ماذا تعكس أو تسقط كلمة أحبك في المستقبل".

فهمت قصده بعد سماعها فاقترب إليوشا أكثر لتفعل شيء سيغير حياة سديم اللحظية، ستضمه و تحضنه بين أيديها و هي تردد "أحبك، أخشى فراقك، أريد حياتي معك، أخاف أن يؤذيك شيئاً يوماً ما".

دون أي مبالاة عن حقيقة الكلام الذي قالت هنا طار عقل سديم و بكى قلبه من شدة الحنان الذي يتلقاه أول مرة من شخص يقول له أنه يحبه و من شخص يملك جمال يصنع به ابتسامة تنسيه حياته الحزينة. يعانقها أيضاً و

يشكرها على اهتمامه في المرحلة الصعبة، قبلته و قبلها و هو يخشى في نفسه أن يكون مجرد حلم أو وهم و حتى لو كان حقيقة يخشى أن ينتهي كل شيء في لحظة واحدة.

لم يبالي لأي شيء حتى من المثل كان جده يعلمه و ذكَّره به المجنون أيضاً؛ "ما يأتي بسهولة يذهب بسهولة"، لم يبالي سديم أو الغريزة لم تجعل سديم يبالي.

[8]حياة سديم عبارة عن نغمة غير مستقرة فكل مرة تختف إما الحدة أو الشدة أو المدة. هذه النغمة صدرت بقلمي أنا الكاتب الذي يضع أحداث حياته تقفز من مشاعر إلى أخرى معبراً بها عن النغمة.

سديم و هو غارق في عناق إليوشا و هما يتبادلان نظرات الحب الغريبة، يسمع صوت الباب الذي أبداً لم يسمعه في الأيام الأخيرة. نهضا الإثنين و هما على شك أن أب إليوشا من سيكون الطارق، وجد لها مكان تختبئ فيه و فتح الباب.

إنه الأب لكن لم يكن بمفرده هذه المرة فقد أتى معه رجلٌ شرطي لأخذ سديم للمخفر قصد استجوابه و ليبحث في حيثيات اختفاء إليوشا.

"سديم ألبرت، قد جاءت شكوى ضدك عبر إعلان و إخبار أب المسمى "باروق" اختفاء ابنته، أخبرنا الأب أن حسب علمه و ما قاله الجيران، المنزل الذي تسكن فيه هو آخر مكان تواجدت فيه إليوشا. لآن يتوجب عليك المجيء معنا قصد البدء في أمور التحقيق.

الخوف و الفزع، ضربات القلب الملحوظة و اصفرار الوجه، هكذا كان سديم بعدما فتح الباب و سمع من الشرطي ما قال. فأجابه و هو يتمتم:

"أنا لم أرى ولا أفهم ما...

أمسك الشرطي بيده و قال:

"سديم ألبرت، هذه أوامر ليس اقتراحات أو مطالب، هيا.

أجاب سديم قلقاً عن المنزل: "ماذا عن المنزل؟".

أجابه الشرطي:

---

8 **الكاتب من يتحدث**

"ستكون رفقتنا عندما نقوم بتفتيشه يوم غذ".

صعد سديم سيارة الشياطين دون أن يقل كلمة أخرى، صعد و هو يقول في نفسه:

"ربما أنا "صديم"، بحرف"ص" و ليس سديم أي من كلمة صدمة حتى و إنها غير صحيحة لغوياً، أظن أن اللغة فقط لَطُفَتْ و لم تريد أن تقسو علي هي الأخرى و قامت بإقصاء هذه العلاقة اللغوية. كيف أن تكون حياتي أو مماتي، لا أعرف هل هي حياة أم عذاب بعد الممات، كيف لي أن أعيش هذا كأنني مجرد شخصية يكتب عنها أحدهم، فعندما يكون في أحسن أحواله مبسوط يقدم لي المجنون و المَلَكْة إليوشا، و عندما يعيش اكتئابه يبعدها و يبين لي حقيقة المجنون و جدي و أن الحب الذي كان يزينه مجرد وهم، كيف؟ أشعر أنني نغمة في مقطع موسيقي حزين و مزعج لا أظن أنه يحوي وزن أو يُركب فوق لحن، لم يجرأ عازفه بعد على إفشائه لأحد".

بينما سديم تائه في عدم الفهم و البحث عن سبب له، يوجد قربه رجلان شرطيان في السيارة، أحدهم تمتم للآخر في أذنه لكنه لم يسمعه جيداً بسبب صوت محرك السيارة الخردة، ثم أعاد ما قال لكن هذه المرة بصوت مرتفع.

"إنه ابن الضابط شعيب، الجندي الذي استغل ضعف الرقبة عن السلطة و اختطف فتاة من أعرق العائلات في مدينة "بومجا" فقد كذب عليها و قال أنها يحاول حمايتها من سفاح، لكن الثعلب كانت تحركه غريزته فقط، ربما هذا الشاب يحاول إعادة ما فعل أباه ".

أجابه الشرطي الآخر و هو يلوح بشارته:

"لا أتذكر الأمر كثيراً، و أظن أن هذه الأحداث قديمة. لكن حال هذا الشاب مصدوم لا أظن أنه الفاعل.

سمع سديم ما قاله و لم يرُد بأي فعل أو كلام أو حتى حرَّك عيناه من مكانهم. وصلا إلى المخفر و طال استجوابه لساعات و هو يجيب عن أسئلة المحققين بارتكاب أخطاء كثيرة أثناء إجابته التي سببتها الطريقة الدفاعية عن نفسه، لأنه كان يفكر في شيء واحد "أن يحافظ على إليوشا" رغم تذكر أباه الذي ساء الفعل لكنه أصر على ذلك.

كان ما هو مكتوب جانب لوحة فنية جميلة للحزين فان كوخ مثير للرعب بعدما أثارت انتباه سديم و هو في غرفة التحقيق؛ غرفة تفوح منها رائحة تشبه تلك التي تكون في الإدارات، الفرق بينها و بين الأخيرة هي رائحة السجائر التي كانت تصدر من الغرفة المجاورة.

عبارات لا تعرف هل تشُلُّ التفكير أو تساعده :**"الحرية مجرد وهم لا يتخطى المصطلح فكرياً و واقعياً، مجرد كلمة يضعها الإنسان بين كلمات الجُمَل التي تبرر الفوضى الذي وضعها أو يريد صناعتها، فوضى فاسدة سبَّبَها وهم اسمه يناشده المغفل"الحرية"**. الله وحده أعلم من كتبها و وضعها هناك لأن حتى الموظفون الذي دامت خدمتهم سنين هم أيضاً لا يعلمون من الفاعل، غير أن لها تمجيد داخل الغرفة من قبلهم.

قرأها سديم أكثر من مرة، وجد نفسه يتفق غير معارض، عندها وجد نفسه يفكر أن ربما مصيره سيكون مثل والده أو أسوء. ظل يظن، يخطط و يخمن محاولاً إيجاد أو الاقتراب من النهاية المنطقية المحتملة له التي ستحدد مصيره.

برهـة، و هـو تائـه في التفكـير يسـمع صـوت صـاخب يحمـل اسـمه من شرطي يناديـه من مكان بعيـد، إنـه الشرطي الـذي تمتم في السـيارة و تحـدث عن أبيـه، يصرخ و ينادي: "سـديم ألبرت قُم!" بصُرَاخه و طريقـة تحدثـه ظن سـديم أنهـا النهايـة أي المنفى أو الإعـدام. أدخلـه غرفـة جميلـة أحسـن من التي كان عليهـا و قال:

"ربمـا أنت مثـل والـدك، قمت بنفس الجريمـة، طريقـة جوابـك عن أسـئلة المحققين كانت تـوحي أنت تـدافع على مـا تخبئـه، مـا يقولـه الجـيران عنـك لا يبعد ابتزازك للفتاه إليوشا، لكن الأخيرة قد أتت في الساعات الأخيرة إلى منزلها و تقـول أنهـا فقـط كانت تـرغب في الـذهاب إلى قريـة بعيـدة قليلاً و قـد فعلت لكنهـا لم تكن قـادرة على الرجـوع بفعـل نسـيانها للطريـق، حـتى التقت رجـل هداها إلى الطريق الصحيح.

لآن يمكنـك الـذهاب و تـذكر مـا كنت تحـدق فيـه في غرفـة التحقيـق: "الحريـة مجـرد وهم لا يتخطى المصـطلح فكرياً و واقعيـاً، مجـرد كلمـة يضـعها الإنسـان بين عبارات لتبرير الفوضى الذي وضعها أو يريد صناعتها، فوضى فاسدة سبَّبَها وهم اسمه "الحرية".

نعم لم يمت أو يُنفى فحياته لا زال يحتفظ بها، لكن إليوشا من الممكن أنه لن تراها أعينه مرة أخرى. يمشي في الطريق عائداً إلى المنزل و يبتسم لمن يراه بطريقة حزينة، لآن المسكين فَقَدَ شخص كان بالنسبة له سند حنان و أشياء جديدة للحظات من حياته، و احتفظ بحياة كان يخشى الرجوع لها، الحياة المملة التي يشك أن إليوشا ستضاف إلى قائم قبور حياته بعد قبضة أبيها.

عائداً إلى المنزل يقول: "شكراً ربي على اللحظات الجميلة التي أهديتها لي قبل انتحاري الذي لا مفر منه، بعد كل هذه الأحداث غير المفهومة ماذا سيحصل بعد؟ الحزن الدائم و اللحظات اللحظية للبهجة الخسيسة؟ مستقبل مجهول لكن عند تصوره لا يمكن أن يكون إلا حزين و مكتئب. وداعاً للحزن أريد أن أقول، ليس لأنني لم أعد قادراً على التحمل لكن أين المعنى من كل هذا؟ ربما انتحاري سيكون حاملاً لمعنى ما. حياة بألوان مغلوقة كأنها تغلق باب المعنى منها، تغلق المنظر و تجعله أسود لكن ظلامه يتحرك ليس ثابتٌ في مكانه، يتحرك و حركته مؤلمة تجعل المنظر مرعب وأن هذا الرعب أصبح ممل، كل شيء أصبح أسود و ممل لذلك أريد أن أنهي كل هذا".

وصل إلى المنزل كارهاً دخوله يتخيل إليوشا، جده، المجنون و الأم ماجنيس محاولاً تصور وجه أمه و أباه. استحم و ارتدى ثياب جديد و أكل و في جوفه خوف من الموت، ينظر إلى وَارِدَيْه بحب و هو يبتسم، كأنهم من سينقذنه من العذاب. بين البكاء و الشجاعة لمواجهة الموت يتجول و هو يودِّع المنزل فلفتت انتباهه الطاولة التي كان فوقها يحادث إليوشا، موضوع عليها كأس شاي بارد و لونه أصبح أكثر حُمْرَة، تحته ورقة مكتوبة بخط جميل، باللون الأحمر أصبح وجه سديم المسكين بعد القراءة، و يبكى لأن الحزن هو المصير.

عندما رأى منظر الكأس و الورقة صدر منه زفير التعب من مفاجئات الحياة، لكن ضحك و أقر على مصيره الموت مهما تكون تحمل الورقة من كلمات. من طبيعة الحال عرف أنها من إليوشا لكنها ذهبت، و هو يعي أن حتى المعجزة لن تحضرها مرة أخرى.

في ذلك الوقت فهم أن الحب مجرد وهم و عرف صداقة مقولة أم إليوشا عندما أخبرته أنها قالت لها أن: "الحب شيء غير مفهوم، ربما هو توهم فقط، لكنه موجود عندما يكون متبادل بين شخصين يعترفان بوجوده، هو مختلف من حيث الاعتبار من شخص لآخر و من سن لآخر. لا يمكنك الحديث عن الحب و أنت لا تعشه أو عشته قبل".

محدقاً في الورق و مظهره يوحي أنه في بداية "صَدْمَةُ القَصْف"؛ "shell shock"، بعد خروجه اللحظي من الحرب، حرب تبدأ بطرح أسئلة عبارة عن أحداث، و تهدأ عند الشك في جوابٍ ما. بدأ يشك في الحل الذي يريد تطبيقه و الذاكرة نشيطة في تصور الماضي المتمثل في جده، المجنون، لحظات قراءته لكتب جده، البحث و التعلم، كل هذه الأشياء بمشاعر حزينة. لا زال ينظر إلى الكأس و الورقة و بصوت خافت يتكلم لهما و يقول:

"أملك شعور عن حياتي أنها شر البشر، ليس الماضي فقط بل أن ما يدعى الزمن عائلة و أفرادها الأكبر سناً أشرار. الماضي رجل خسيس الشخصية قبيح الوجه، له امرأة تدعى "الذكريات"، مطيعة لرجلها كطاعة العبد لربه، محافظة و لا تخفي شيء مما يفعل زوجها، و هي أيضاً قبيحة الوجه و لا تساعد زوجها غالباً إلا في ما يحمل السوء. أما عن الحاضر أب الماضي، كانت له سلطة و شهامة سابقاً لكن عندما وُلد الماضي و كبُر و ساءت أفعاله بسبب أخطاء من أبيه الحاضر لم يبقى في يده هذا الأخير أي شيء من التحكم، أصبح يتدخل في لحظات إما مطيعاً للماضي و زوجته مساعدتاً لهم أو تدخُّل مبهجاً سريعاً محاولاً اصطناع التوازن كي

يستمر الزمن. المستقبل أخ الماضي الصغير دائماً و ابن الحاضر، دنيء المشاعر لكن شكل هذا الفرد من هذه العائلة غير راض على ما تفعله الذاكرة و غير راضي على استلام الماضي القيادة، يريد أن تعود السيادة للحاضر لكن رغم كل هذا لا يتحرك، هو مجهول لا يقدر العقل حتى على تخيله. عائلة تتطور بسرعة و بحركة غريبة، عائلة غير ناجحة، عائلة تسكنني مالكة عقلي و قلبي مأواها، و يا ليتها تخرج مقابل تعوض عن إخلاء مني ليس له مثل".

أخذ الورقة من تحت الكأس عندما بدأ يشعر بالنوم إزاء اللعوب الذي يتملك جسمه و تفكيره في الانتحار لا زال صورة عين عقله، جعل الورقة أقرب إلى وجهه-عيناه- و قرأ :"كنت أعلم أن ما أتمناه سيكون له وقت قصير إذ تحقق و هذا ما حصل، أحبك قلتها لك مرة واحدة و لن أعيدها لأنك لن تتمكن من رؤيتي مرة أخرى، و هذا لن يجعل تلك الكلمة تستمر في الوقت في إثبات وجودها". كان هذا أول سطر في الورقة، لم يغير أي شيء في مزاج سديم، ظن أن هكذا هي الورقة بأكملها فقط تحمل عبارات الحب الغبية. لكن عندما ألقى نظرة عما تبقى في الورقة وجد جزءً منه غريب، و هي السطور ما قبل الأخيرة باللغة غير المألوفة:

”Alistahili kutawala nchi, lakini watu walimkataa, kwa hivyo alikusudia kutawala akili na wakati wao katika mamlaka yake, ambayo ni muziki.”

لم يفهم الكتابة كما لم تفهمها أنت يا قارئ، لذلك أخذ يتمعن سديم كثيراً في الورقة و ما تبقى من الكتابة لكنها كانت تحمل عبارات الوداع المملة. بدأ محاولة فهم الكتابة لكن لا شيء ترجمه العقل من غير الكلمة الأخيرة "الموسيقى" عندها عرف أن الكتابة تخص جده، لكن لم يفهم لماذا إليوشا كتبت بهذه اللغة الغريبة عن التداول في مجتمعهم.و بعد تأمل لدقائق حيث

وضع سديم عيناه على بين الكلمات، فشَتَّتْه العبارات المكتوبة بتلك اللغة عن انتحاره.

أخذ يفكر في الكتاب الذي حدَّثته عنه إليوشا الحامل عنوان "الصمت". بحث عنه في غرفة عمل جده عسى أن تكون له نسخة أو أوراق عنه لكن لم يجده فتحصَّر جالساً أمام الغرفة يلوم نفسه لأنه لم يسأل إليوشا عنه كثيراً.

عاد إلى المكان الذي وجد فيه الكأس و الورقة، جلس و هو لا يعرف ما يفعل، ينظر إلى ورديه و يقول هل انتحر أم أحتسي كأس شاي؟ الانتحار مشكل و البقاء في الحياة مشكل أكبر. ينظر من كل جهة و يتأمل كل جهة، و في مكان وقف فيه رأسه من الالتفات رصدت عيناه "الساعة"، الساعة التي كان ينام على صوت عقاربها. نهض من مكانه و حملها عنده و وضعها قرب الكأس و الورقة، ثلاث أشياء كلها تحمل أسئلة.

أما الساعة لا يعرف السبب الذي جعل الجد يتركها له. الورقة لا يعرف جزء مما هو مكتوب فيها. الكأس و هو الكأس الثالث الذي تركته له إليوشا ليشربه وحده بسؤال و تخمين عن أشياء كتبتها و تركتها مجهولة؛ لماذا؟ هو السؤال الذي ظل يسأله كلما وجد نفسه جالساً يتأمل شموخ العالم و دناءة حياته.

الفصل الثالث:

الفكرة.

مضت ست أيام، ست أيام من الحيرة و الشك بين طريق النهاية أي الانتحار أم طريق البحث من جديد عما لا يعرفه و المتعلق بالأشياء الثلاث. كأن عقله بدأ يفهم أن الصورة التي يراها غير مكتملة و أن ما لم يوجد في الصورة هو الجواب عن السؤال الذي يطرحه. كانت مجرد أفكار لم يتم إسقاطها أفعالاً لذلك لم يتغير شيء في تصور حياة سديم سوى الوقت الذي يقيده في المساء و هو يتأمل راعي غنم و راعيته الذي يصل بهم إلى خلف المنزل قبل غروب الشمس. يتأمل البساطة، الراحة و هدوء؛ الحياة التي يملكها ذاك الراعي. كل مساء يمر يخفف من صدمة سديم و يجعله أقل تأثر بما يعيشه.

الوقت يمر بالأيام، فكرة الانتحار تزول قليلاً و راعي الغنم أصبح أنيس سديم البعيد. لا يقترب منه حتى، ينظر من بُعد لا يعرف الراعي حتى أن هناك من ينظر له بنظرة لوحة تشكيلية متحركة تُنسي شخصاً حياته في المساء.

هذا المنظر جعل سديم يصاحب القلم و الورقة دون أي سبب أو دافع، فقد أخذهما من غرفة جده التي بدأت تبدو له مجرد خردة. و اعتبر خطوة الكتابة هي المنطقية لتحديد مصيره حيث بها سيرسم فكرة عن حياته و يمتحن هذه الفكرة التي ترسم حياة لا يعرف هل هي تستحق الاستمرار أم لا.

أثناء رؤيته للغنم تأكل مما أنعم الله عليها، و الراعي يجلس مسترخي ناظراً إلى السماء و فوق رأسه آلة تصدر موجات صوتية موسيقى قديمة. صاحب الورقة و القلم و عزم أن يصنع شيئاً جميل حتى لو كان تناسق للحروف و الكلمات وإن لم يفلح في ذلك سينتحر؛

"إنه اليوم الأول لي و أنا أكتب، أريد أن أصنع ذكريات من هاته المذكرة عسى أن تُمحى الذكريات السالفة. أنا لآن خلف المنزل الذي أسكن فيه أمام شمس

تغرب و هي تبتسم لي و أنا أكتب. تحت هذه الشمس هناك ما يقارب خمس و عشرون رأس غنم و راعيهم، رجلٌ اشتعل الشيب في رأسه لكنه لا يزال قادر على السير و تسيير الماشية. يرتدي جلباب لا تناسب قامته القصيرة، شعره أسود و أظن أن الشعر فقط ما هو أسود في حياته، إنه يقدس الموسيقى أيضاً و أظن أنها هي المركبة التي يسافر بها...

...اليوم الرابع من توقيت وصول الراعي لآخر محطة استراحة راعيته. منظر السعادة مستمر و يا ليت الشمس تقف لتستريح هي الأخرى، لا أملك قدرات كافية على الرسم و لو كانت لرسمت لواحات لهذا المنظر و علَّقتها في منزلي عسى أن يبتهج قليلاً. كتبت حـــولي عشرين صـــفحة في أربعـــة أيـــام، عشرين صفحة من التعبير السعيد بأسلوب محترم، كل هذا و أنا أنظر إلى الراعي و الكائنات المجاورة له.

أمس في الصباح الباكر ذهبت إلى هذا المكان الذي أصفه في مذكرتي هذه، لكن لم يكن كما أراه من بعيد، بدون شمس تغرب و بدون الرجل الذي سميته "أمير الهناء". هناك شيء أملكه داخل قلبي يقول أن هذا الراعي ربما سيعيد إليوشا إلي، أو سيعيد البهجة إلى حياتي أقول أحياناً ربما يجب علي الذهاب لأسأله عنها و عن أبيها الشرير. لكن سأنتظر لأن هناك أشياء مهمة بالنسبة لعلاقتي المستقبلية مع هذا الفلاح أو المزارع ستكون في "اليوم العشرين"؛

اليـوم العشرين هـو يـوم النتيجـة ليس للدراسـة الـتي لم أذهب للمدرسـة كي أتلقاها، لكنه يوم مصيري؛ هل سأكمل في الحياة أو أنتحر. لقد أصبح المنطق شيء قليل القيمة في حياتي لذلك فكرت هكذا و أردت أن أجعل اليوم العشرين يوم نتيجة لأحداث عشوائية؛ فيه سأذهب لراعي الغنم و أقدم له ما كتبت و

أنظر هل أستحق موت طبيعي كالناس أجمعين أم أقتل نفسي كارهاً ذاتي دون رحمة...

...اليوم الخامس عشر، أحضر أمير الهناء في هذا اليوم ابنه الصغير أو حفيده لا أعلم، أظن أنه يعلمه بعض الأشياء عن حيثيات رعي الماشية و يعَرّفه عن الأماكن التي يزورها. يبدو الابن مسروراً بما يعيشه في هذه الأثناء، تمنيت أن أكون مثله. لا أريد القول أن الأوضاع في حياتي أصبحت متحسنة شيئاً ما رغم أنني لا أصف بشاعتها لأنني لست غبي أتمظهر باكتئاب و السبب ليس الحزن بل شيء آخر، لكنني أفعل. ففور أن أبدأ في الاستماع لبعض المعازف أكون الغبي الذي وصفته، لكنني حزين و الموسيقى أنيسي في الحياة.

إن أقدم ما تحمله لي ذاكرتي عن بداية حياتي يحمل عنوان الحزن، أنا الإنسان الحزين حقيقتاً ليس لسبب أو سببين، أخشى أن تكون الحياة هي من تعاني بسبب وجودي ليس أنا من يعاني بسبب ما أعطته لي. ليتها تتكلم معي يوماً لأنني أشعر أن هناك ما يتوجب علينا الحديث عنه. لكن لآن سيكون الحديث عن الراعي الذي أخشى أن تكون الجهة الشريرة من الحياة من جعلته يأتي كل إلى هنا يوم، أخشى أن يكون هو الآخر هارب من ضجيج حديث الحياة له مستعيناً بتلك المعازف ظناً منه أنها الملجأ..."

إن الكتابة شيء موجود حقيقتاً، ما جعلني أقول هذا هو يقيني أنها هي التي تصنع مؤلفها و ليس العكس، الكتابة تجر صاحبها إلى ما هو مرغوب في التعبير عنه و ما غير مرغوب فيه.[9]

ما كتب سديم خلال هذه المدة الوجيزة صنع فيه فضول، صنع فيه دوافع كان ينفي أن يصنعها هو. قبل اليوم العشرين من الكتابة و بدون شعور وجد سديم نفسه أمام الراعي و هو يلقي التحية، لم يكن له يقين حول سبب ذهابه لكن الكتابة كان لها دور في ذلك؛ وجد نفسه يصف شعوره اتجاه لوحة فنية بأجوبة لأسئلة لم يطرحها شخص أبداً بعد؛ كهل فعلاً الراعي سعيد؟ سبب سعادته؟...

كان اليوم السابع عشر من الصراع مع اللغة، لم يصارعها ذاك اليوم كتابتاً بل حديثاً، و ذلك بإحضاره لمرآةٍ كانت مجرد خردة من المنزل و وضعها كي يرى نفسه كيف يبلي و هو يتحدث أمام شخص ما، كان هذا التحضير جزء أول و جزء ثاني، الأول حادث فيه نفسه و هو ينظر إلى المرآة بطريقة عنيفة، عيناه لا يمكن الجزم على أنها مغلوقة أو مغموسة، فمه يتحرك كأن هناك من يتحكم فيه، واقفاً بطريقة سوية كأن هناك أمامه ما يخيفه.

احتقر نفسه و توعد أمام المرآة عن الموت لأن الحزن أخذ منه كل ما يمكنه أن يُؤخذ و لن يسمح له أن يأخذ حياته بطريقة سلسة و سهلة. الجزء الثاني من التحضير بعد أن تعرف قليلاً عن نفسه الميتة في لمرآة، ارتجل مُعَرفاً نفسه بتقديم فكرة عن شخصيته و حياته، الشيء الذي جعل يبكي بكاءً

9 الكاتب من يتحدث.

صَعْبَ الحبس، بسبب الواقع الذي لاحظ أنه بدأ يعيشه. يبكي محدقاً في جسده أمام المرآة يقول:

"إلى أين تمضي بي الدنيا؟ كيف لي أن أبحث عن ولو شيء واحد جميل في حياتي بأشياء ليست لها معنى؟ من ذاك الراعي الذي أُحَضِّر نفسي لأتعرَّف عليه و أنا أتمنى غداً أن تنال الكلمات التي كتبت إعجابه؟ ما المعير الذي استندت له كي أفكر هكذا؟"

رفض التفكير في أجوبة هاته الأسئلة و احتقر نفسه مرة أخرى مستفهماً: "كيف لي أن أطرح أسئلة منطقية عن حياة من العدم و الحزن و الشر المأخوذ؟".

صَدْمَةُ القَصْف الدائم خرج بها من المنزل بعدما أخذ يتطلع على ما كتبه و هو ما وصف به الراعي في يومياته الأخيرة، لكن لم يكن يعلم بأي شيء عن "تأثير حجم الخط البصري" الذي جعله يتذكر فقط ما قرأ في المنزل و هو وصف سعادة، لذلك به بدأ الموضوع و به ألقى تحية السلام على الرعي؛

"مساء الخير يا صاحب السعادة".

ينتظر الراعي لثواني حتى تنتهي المعزوفة و يجيبه الراعي على التحية و على عبارة صاحب السعادة:

"مساء الخير يا صاحب نصف نظرة".

أجاب سديم بتَلعثم في الكلام:

"أريد القول كيف حالك لكن هذا السؤال لا يُطرح إلا على من له أحوال كالتي أعيش، أظن أني فعلاً أملك نصف نظرة"

ينهض الراعي من مكانه و يجيبه:

"من أنت و ماذا تريد؟"

هنا سديم يبدأ في استظهار ما حفظه في التدريب أمام المرآة و يقول:

"أنا، استمررت في النظر إليك من بعيد عندما أصبحت أنتَ أنيسي في بعض لحظات الحياة و للأسف لم أكتفي بالنظر، بل لي سبعة عشر يوم و أنا أكتب عنك من مكان بعيد واصفاً الحال الذي تكون عليه، و لسوء الحظ مرة أخرى ها أنا أمامك بعدما قادتني الكتابة لطرح أسئلة عنك و ما يخص يومياتك، أريد أن أطرحها و أتلفظ بها في وجهك لآن.

الراعي:"ما الأسئلة التي تريد طرحها؟ و لماذا؟ قد سألتك عن من أنت و ليس ما تفعل هنا أو من المكان البعيد".

سديم: "أنا سديم ألبرت، ابن شعيب ألبرت ابن زهاك"...

يبدو الراعي بنظرة أمل و رغبة في الحديث بعدما كان يتجنبه في الأول:

"أنت حفيد الرجل المنبوذ، الرجل الموسيقار".

يعبر سديم بيده عن ارتياح بعدما عرفه الراعي:

"نعم، أنت أيضاً تعرفه".

ضحك الراعي و اقترب من سديم فقال:

"أعرفه و أنا من الناس الذي يقال عنهم "يريدونك حمل المشعل" رغم أنني أجعل من الموسيقى ما يجعلني مقهور و أعيش على الماضي، لكنني أريد أن أعيش **يوم** تعتلي الحقيقة السماء، لأنني أكره ما هو عليه العالم.

يغضب سديم بعد الكلام الذي مدح به الراعي جده:

"جدي كان مجرد ساحر هو و صديقه المجنون. كفانا حديث عنهم، أريد أن أعرف هل أنت فعلاً سعيد كما يوحي لي المنظر الذي أراك فيه، هل ممكن؟"

يعـود الـراعي إلى مكان جلوسـه بعـد سـماعه هـذا الكلام و يقـول و هـو ينظـر إلى الشمس:

"أنت من بدأت بالحديث عنه و أنت من تطالب بالكف عن الحديث عنه، حسـناً. السـعادة واجب على أي شـخص العيش بهـا، سـواء إذ تـوفر الظـروف المناسبة لذلك أو بمجرد التمثيل بأن السعادة توجد في الحياة. ربما أن تكون وهم كما يعتبرها الكثير، الأهم هـو إذ قـرر أحـدهم أن يعيش الحيـاة الواقعيـة فمن الصعب أن يواجهها. و مصير من واجهها معروف، فهي حـرب؛ و الخـروج منها فائزاً يكون بالخسائر".

أعجب سديم بما قاله له الراعي و أعجبه أيضاً أسلوب كلامه فقال:

"هل الغنم و النعمة المنزلة هم الآخرون جزء من المسرحية؟ ممثل الخير؟"
حرك الرجل رأس قائلاً "ربما".

جلس سـديم هـو الآخـر بعدا شعر أم تيار الكلام د مر بسلام بينه و بيين الراعي جلس و هو ينظر إلى الأسفل فقال:

"إذن ما سبب تمثيلك أنك سعيد إذ كان هناك ربما ما يجعلك كئيب هزيل الجسم أو ربما طريح الفراش؟".

نـزع الـراعي القبعـة من رأسـه، لتظهـر لسـديم ملامح وجهـه أكثر، و يلاحـظ أنهـا ملامح لم تُبقي تلك الراحة التي شعر بها:

"حسـناً، حسـناً، لا أريد و لن أُظهر للحياة مكان الجـرح الـذي فيه قادرة على تجديـد ألمي بشيء اسـمه "الـذاكرة". بلـغ من الـوقت مـا يكفي اليـوم قـرب هـذا النهـر، وداعـاً ربمـا نلتقي مجـدداً و نتحـدث عن حزنـك الـذي تتكلم عنـه ملامح وجهك يا غبي، و كما أنا متأكد أن زهاك نصحك؛ ابتعد عن الموسيقى و تذكر

أن السـعادة شيء ضروري، ليسـت وهم و ليسـت نتيجـة أو هـدف"شيء ضروري".

لم يتقبل سديم رحيل الراعي المفاجئ و قال له مترجياً:

"كيـف؟ نحن التقينـا للتـو، هـل لي بالحـديث معـك مزيـداً من الـوقت من فضلك؟

ارتدى الرجل قبعته و أجاب: "لا".

لم يفهم سديم لماذا فعل هكذا لأن الوقت الذي دائماً يرحل فيه لا زال بعيداً، فتبع ارجل و هو مغادراً المكان:

"ماذا عن الغد؟ رجاءً كن في الموعد، فإنني أملك رسالة مكتوبة بلغة غير مفهومة و إنك تبدو قادر على مساعدتي في فهمها أو معرفة شخص قادر على ذلك أليس كذلك؟"

يجيب الراعي و هو يلوح مخاطباً غنمه لتحرك: "إذ أتيت، نعم".

لم يستوعب سديم سبب استعجال الراعي رغم أن الجو أوحى له أن الوقت لا زال متبقي، لكن بعـدما رحـل الـراعي و راعيتـه من المكـان، عـرف سـديم أن أسلوب حديثه مع الراعي هو السبب، تذكر إليوشا و تحسر على عدم سؤاله عن والدها لأن الراعي يبدو أنه مالكٌ دراية و معرفة بأمور كثيرة أكثر مما اعتقد سديم في نظرته الأولى له، فعزم على الحضور غداً من أجل الحديث معه و عن الرسالة.

سـديم لا زال يتـذكر إليوشـا، عناقهـا لـه، كلمـة أحبـك الـذي قـالت لـه، لعبـة النظرات المتبادلة بينهم...، فقد عاد إلى المكان الذي يرى منه الراعي و أخذ يتأمل إليوشا؛ كيف دخلت حياته و كيف خرجت. لاحظ الغرابة في معرفة

هذه الفتاة و كيف كانت تتكلم معه، كيف بمجرد كلمة "أحبك" التي قالت له أصبح هو الآخر يحبها. جلب مذكرته و كتب؛

"... اليـوم السـابع عشر من الكتابـة الـتي أحـاول بهـا صـنع شيء ذو معـنى في حياتي. قدَّمت لي الذكرة في هذا اليوم شيء فكرت فيه بأمر من الماضي، لكن هـذه المرة راودني إحسـاس جميل و هـو أنـني لم أفكـر في هـذا الشيء بمشـاعر الحـزن، بـل كأن الماضي رَفْرَفَ بجناحـه الأيسر إلى الحاضر مستحضراً شيء لي لم أكن على دراية بوجوده عندما كان الماضي حاضراً؛ لم يكن لي تركيز حول ما كان بيني و بين إليوشـا، سـبب حبها لي كان مفهـوم شيءً مـا، لكن مـاذا عن مـا كنت أشـعر به أنـا؟ اليـوم قـال لي الـراعي عنـدما ذهبت إلى المكان الـذي يقـف فيـه للحظـات أن السـعادة شيء ضروري أن يكـون، حقيقيـة أو مزيفـة. هـل الحب من الأشياء التي تتمثل فيه السعادة؟ لا أعلم، ربما أسأل الراعي مجدداً عن هـذا. بدأ الظلام يحـل على المكان الـذي أكتب فيه لآن، ذلـك سـأترك باقي الكلام في باقي الأيام القادمة.

يومين للنتيجـة التي أنتظرها بحـزن، خـوف و وصـف لـراعي و حياتـه منذ ست عشر يوم قد مرت بالهدنة؛ أي لم يكن هناك أي قصف جوي بحدث لأراضي حياتي اليومية".

عاد سـديم إلى بيته الذي بدأ يشعر عندما يدخل له أنه قبر فيه أكثر من ميت في حياتـه، نظـر إلى سـاعة الجـد ليس ليعـرف أين وصـلت العقـارب لكن فقـط ليطمئن أنهـا لا زالت تعمـل و أنـه يهتم بهـا كوصـية من جـده رغم الغضـب تجاهـه. قـام بتحضير وجبـة عشـاء، تناولهـا ببطـء أنتجـه التفكير الزائـد و عـزم على النوم مبكراً كقمع للأفكار التي تراوده في الليل أثناء استلقائه.

نجح القمع الذي مارسه على ذاته و نام نوماً هنيئاً فعلاً. استيقظ في صباحٍ مشمس و حار حيث الصيف فصلاً هذا اليوم و هو آخر فصل ستعيشه قصة المجنون و سديم، قام بتحضير وجبة الفطور مثل التي أحظرتها إليوشا له ذاك اليوم، استيقاظه الباكر ذكَّره بالأيام التي كان يذهب فيها إلى مكتبة المجنون ليتعلم منــه و يقــرأ كتب التــاريخ و المجــالات الأخــرى. لكنــه لم يكن من المخطط أن يلتقي أي أحد منهم هذا اليوم، فقط تناول تلك الوجبة و هو في الذكريات هائم مرة أخرى.

انتهى من الأكل الممل فإذا به يسمع أحدهم يطرق في الباب ببطء كأنه يموت أمام المنزل و يطلب الإغاثة منه، لم يُخَمن من يكون قد أتى اليوم ليزوره لأنه فعلاً ظن أن هناك من يستغيث أمام الباب لأن الطرقات كانت شيئاً ما غريبة.

ذهب متسرعاً إلى الباب و فتحه فإذا به يرى الأم ماجنيس بقامتها القصيرة تحاول التقاط أنفاسه بسبب العياء. تفاجئ سديم لمجيئها بعد أن تفكرها هي و المجنون عند استيقاظه.

تُدخِل الهواء لرئتيها و تقول:

"الحمد لله أنني وجدت المنزل، يعرف المجنون كل شيء إلا أن يصف مكان ما إن في هذا الحي يجب أن تكون ثقيل الظل، فكل من أسأله عن هذا المنزل لا يجيب بطريقة سليمة، احضر كأس ماء من فضلك يا سديم فقد فقدت الإحساس برجلي".

سديم: "مرحبا، تفضلي بالدخول".

الأم ماجنيس و هي تتنفس بصعوبة: "شكراً سديم".

فيسألها سديم بعد دخولها المنزل:

"ما سبب مجيئك بهذه الطريقة المستعجلة أيها الأم ماجنيس".

لكنها هي تصرخ و تكلم عن شيء لم يكن ينتظر سديم أنها هي الأخرى ستتكلم عنه:

"كيف لك أن تكون أنت أيضاً بين قبضة الشبح؟ كيف تسمح لنفسك يا سديم؟ بُعْدُك على المجنون هو السبب، لا أعرف كيف بدت نظرتك له، لكن ما علي فعله و قوله لك واجب علي. دعني أرتاح قليلاً و سنتحدث لأنني سأعود إلى المكتبة قبل أن تشتد حرارة الشمس، و من فضلك طفئ تلك الموسيقى اللعينة [10]**فلا يحب الموسيقى سوى الذين يتعذبون في الحياة**".

شربت الأم كأسين ماء و استلقت في أريكة قديمة لها جمالية تعطيها منظر الراحة و الدفئ. دخل سديم غرفته و هو يتساءل حول ما ستقول له و ما ستكون ردة فعله تجاه أقوالها كي لا يعود للمجنون تاركاً الأم ماجنيس وسط المنزل تلتقط أنفاسها و لا تعرف كيف توجه سديم خصوصاً أنه يواجه بعض الأشياء في حياته دون التساؤل عن سبب المواجهة، سبب مشاركته في هذا الصراع أو إلى أين تمضي به الأيام، لم تعرف كيف تدفع ليعود للمكتبة و ليعود لبطل هذه القصة الذي يريد أن ينهي حياته بنجاح مهمة كانت حلم الجد زهاك.

سديم يحترم الأم ماجنيس كثيراً لذلك عزم على ألا تكون بينها و بينه محادثة غير لائقة و لهذا السبب هو في شك حول جوابه لها، لأنه لا زال يعتقد أن المجنون كان يستغله كي يكمل ما بدأ الجد دون إخباره أن الجد شخص يُعتبر منبوذ المجتمع، لكن سديم لا يعلم حقيقة أن ما ليس الجماعة دائماً على حق.

10 مقولة للفيلسوف وكاتب روماني **إميل سيوران** نشر أعماله باللغتين الفرنسية والرومانية ولد في قرية رازيناري، إحدى قرى ترانسيلفانيا الرومانية والتي كانت في تلك الفترة تابعة للإمبراطورية النمساوية المجرية.

بعـد لحظـات تنـادي الأم مـاجنيس سـديم بعـدما أخـذت قسـطاً من الراحـة: "سديم! تعالى إلى هنا".

عاد سديم إلى وسط المنزل جالساً على كرسي خشبي يشبه كرسي عرشٍ ما كان للجد زهاك، يبتسم سديم للأم و هو يلمس بعض من شعر اللحية التي بدأت تظهر في وجهه: "نعم أيها الأم، أنا أستمع".

الأم ماجنيس: "نعم تعال فقد حان وقت الحديث، الحديث الذي كأن الوقت يركض كي لا يحمله في ساعة من ساعاته لأنني قد أغير مجرى كل شيء بما أريد أن أقوله إذ كنت مستعد أن تنهي كل هـذا، و تجـل حاضرك بين يـديك و ليس بين ماضي الجـد، لأن كل هـذا مجـرد شيء بسـيط فما هـو إلا وصـية من الجـد لك، لكن طاعتك للشبح و تقديسه من جعلك تعيش هكذا".

جلس سـديم أمـام الأم محـدقاً في يديـه و هـو متـوتر بابتسـامة تـوحي بـذلك، عـرفت الأم أن الشـاب في المحادثـة سـيتهرَّب من مـا تريـد أن تقـول لـه أو أنـه سيقبل ذلك فقط في حضورها أما عندما ترحل سيعود سديم لحاله القديم. لذلك استبقت الكلام قائلتاً:

"سـديم، إنـك شـاب، لكن تعيش حياة شـخص كبير السـن، تعيش النهايات ليس البدايات. لم تعش فرحاً في حياتك كثيراً، نعم إني أتذكر كل مرة كنت أرى فيها نـور السـعادة في عينيك. أمـا لآن تشـكي أمـرك كثيراً و مظهـرك يـوحي أنـك ضـعيف، المشـكل ليس في الضـعف أو نظـرة الحيـاة، المشـكل أنـك "رجـل". الرجال لا تبكي علانية حتى لو كانت الحياة تظلم كل لحظات اليوم.

الرجل يبقى جوهره قوي رغم الضعف الذي يعيق خطوة رجليه و حركة يديه. لا أقول لك هذا قصد أنك تعيش كالمرأة، لا! أنت فقط لا تعيش كما يجب، أنا

مـرأة و أعـترف أن مقابـل الرجـال ليس نحن النسـاء. لا يمكن أن لأي شيء أن يقف أمام الرجل إذ كان فعلاً رجل".

اسـتحيا سـديم من الموضـوع الـذي تحـدثت عنـه الأم، فلم يحـرك عينـه من مكانهم ناظراً للأسفل:

"صرحتاً لم أتوقـع يوماً أن تتحـدثي هكـذا عن الرجـل. ما ذكـرتي لآن صحيح عن شخصيتي، لكن ما علاقـة المجنـون بهـذا؟ و هـو السـبب الـذي أتى بك إلى هنا.

تغير قصير القامة وضعية جلوسها و تجيب سديم عن سؤاله:

"المجنـون من علمـني قيمـة الرجـل، دوره، مكانتـه و خطـره، و كلمـة خطـره يمكنها أن تُقال من بعض الأفراد المجتمع عن الجد زهاك، أمام أنا أقول دور و قوة!"

يجيب "المايسترو المستقبلي الثائر عن الموسيقى" عن ما قالته الأم:

"المجنـون و جـدي قـد يكونـوا كما تصـيفينهم، لكن مـا حـاولوا فعلـه و مـا يحاول المجنون فعله لا يناسب سلوك إنسان".

الأم: "إن لي أمر أريد أن أقول لك عنه لكن أخشى أنك لن تستطيع أن تحتمله لآن أو يكون مصدر خوف لك، لكن أريد أن أنبهك بشيء و هو أنك تبني تفكير و صور عن أشياء لا تعرفها".

سـديم: "لا أظن الأمـر مهم قـدر مـا يهمـني مـا أعيشـه في هـذه الأيـام على ألحاني".

تضـحك قصـيرة القامـة ضـحتها الاعتياديـة الـتي تجعلهـا أصـغر سـناً و تجيب سديم ناظرتاً لعينيه:

"ماذا تعيشي أيتها القصة الحزينة؟"

سديم: "لم تعد حزينة بعدما نظرت شخصيتها يوما إلى لوحة فنية بصرية بعيداً عن أي تلوث بصري قد كان أو لا زال. لوحة تصف حياة راعي غنم سعيد أو ربما قريب من السعادة.

تنتبه الأم ماجنيس لذكر سديم للراعي فتسأله بملامحها المستفهمين:

"من هذا الراعي الذي أصبح يلهم شخص ليس من راعيته؟"

سديم: "إنه شخص يكون قرب نهر أراه من خلف المنزل، بُعد النهر من جعل المنظر؛ الشمس، الغنم و المساحة الخضراء لوحة فنية أكتب عنها.

ماجنيس: "لا أملك وقت و إلا ذهبت معك لأرى ما تصفه، لكنك قادر على أن تريني ما تكتب عنه أليس كذلك؟"

ينهض سديم من مكانه متجها إلى مكان وضعه للمذكرة قائلاً:

"نعم فعلاً، سأريك ما كتبت و سأحكي لك وقائع عشتها مع فتاة في الشهر الماضي، قصة انتهت برسالة لم أفهم بعض من سطورها".

أحضر سديم مذكرته التي كان سمها "أمير الهناء" كعنوان، نظرت الأم لهذا العنوان و استغربت له دون السؤال عن سبب وضع سديم عنوان كهذا. بدأت تقرأ و سديم ينظر إليها كأن رأيها عن كتابته هو محدد مصيره المجهول.

وصلت الأم إلى الورقة التي تحدث فيها سديم عن يوم مثوله أمام الراعي كأنه القاضي الذي سيحكم قضية حياته الغريبة فاستغربت أكثر من الأول حول معيار و سبب اتخاذه قرار كهذا، لتسأله بطريقة كأنها تحاول تهدئة وضعه الذي قد ينقلب عندما تطرح عليه سؤال تطلب به مبرر لهذا:

"طيب، لماذا كل هذا يا سديم؟ لماذا شخص مجهول لا تعرفه تصنع له شيء كهذا؟؛ راعي لا تعرف حتى اسمه ستقدم له كتابة تصفه بطريقة كأنه هو ملجأك الوحيد و الكتابة هي مفتاح باب هذا المنفذ، لماذا؟

شعر سديم بعشوائية تفكير و شعر أيضاً بأن له عذر، فقال بعد صمت عبَّر به عن حاله المرتبك:

"ربما أنت تعرفين شعور أن لا يتبقى لك أمل في الحياة لكن تستمرين في التحرك رغم علمك أن هذا التحرك لا يسمن ولا يغني هذه الروح البائسة من العيش الهنيء".

تنهض الأم من الأريكة بنظرة اصطناع الهدوء في وجه سديم:

"ما قلته لك حول ما كتبته في هذه المذكرة هو نفس الشيء الذي سيقوله الراعي الغريب، ما سبب كتابتك هذه؟ ما المعنى؟، لا تقلق لا تخف كل شيء سيمر بخير يا صديقي".

أراد سديم الدفاع عن رأيه و إظهار صعوبة الظروف التي يعيشها، فقال رافعاً صوته:

"المعنى يكمن في جعل ولو شيء واحد جميل، يُفرح شخص ما، هذا ما فكرت فيه أو هذا ما جعلتني الظروف أكون عليه، ليس أنا بل الظروف".

ترفع الأخرى صوتها قائلتاً:

"ما هو معيار الجمال و المعنى الذي ارتكز عليه فعلك هذا؟"

يعود سديم إلى موضع الهدوء و الدفاع؛ يده على جبينه:

"ربما العدم و العشوائية. رغم أن العدم لا جمال قد يُبنى عليه لكن هكذا أتخيل حياتي".

الأم ماجنيس: "حسناً و هل فعلاً أنت قادر على التقدم بخطوة إلى الموت و العدم الحقيقي؟ ألا تظن أن ليس هناك وعيد؟ أليس هناك إله قدم وعد بأن هناك حساب؟"

عندما ذكرت الأم ماجنيس موضوع الله و سألت سديم عن الحساب انخفضت أكتاف سديم و قام بشهيق قابَله زفير يحمل جوابه عن السؤال:

"على ماذا سأتحاسب؟ و أنا لا أعلم حتى الموضوع الذي تتمحور عليه شخصيتي في هذه الدنيا".

الأم: "إن الله قدَّر لك أن تعيش هذا البلاء كامتحان لك، إنك لا تعرف، إن حواسك ضعيفة و غير دقيقة و إن ما لا تعرفه أكبر و أعظم مما يحمله رأسك المُكَوَّر. عُد إلى ربك فهو الذي تُرجع إليه الأمور و هو الذي إليه راجعون".

بعد هذا الكلام الذي خرج من فم الأم و دخل عين سديم تصوراً و فمه كلاماً و أذنه صداً، لم يتحرك و لم يجيب عن كلامها، نسي حتى أن يريها الرسالة الأخير لإليوشا له التي كانت في آخر أوراق المذكرة. لم يتحرك كأن عبارة "إن ما لا تعرفه أكبر و أعظم مما يحمله رأسك المُكَوَّر" قَيَّدَهُ المعنى الذي تحمله عندما فهمه و استوعب أنها تعكس ما هو عليه.

فجأة، رفع رأسه راغباً في طرحه سؤال؛ و أين سأجد ما لا أعرفه؟ لكن صوت ضجيج و صراخ كبير قادم من الباب أسكته و جعله ينهض من مكانه متجها إلى الباب بعدما لم يبقى الضجيج و صراخ الناس فقط ما يُسمع بل بدأ يرى الباب يهتز من شدة ضربه كأن هناك شخص ما غاضباً يحاول اقتحام المنزل.

فتح الباب و الأم ماجنيس وراءه و الخوف يتملك حركتها؛ هَرَاوَات مشوكة و أسلحة أخرى محمولة من الجيران و هم يصرخون في وجه سديم، جعله هذا المنظر سديم يشعر بالدوار و فقد توازنه قبل أن يمسكه أحدهم بيده و هو يقول "اخرج يا فاسق، يا ابن العائلة الفاسدة". بدأ الضرب المؤلم لسديم من جهة و مناداته بالصفات غير الحسنة من جهة أخرى، أما الأم بدأت تصرخ و تبكي بسبب ما تراه من عنف و ظلم اتجاه سديم المسكين.

قاوم سديم في الثواني الأولى لكن عدد الجيران الكثير جعله يستسلم و بدأ بالصراخ هو الأخر. رفعه الرجال فوق أكتافهم الذين كانت تفوح منهم رائحة نتنة تشبه منظر رفع الميت و الذهاب به إلى القبر، أدخلناه إلى منزل أحدهم يدعى عباس فجاءه رجل كبير السن لم تراه عيناه من قبل. وضع وجهه المتجعد بمقربة وجه سديم المتورم و المملوء دم و قال:

"أتظن نفسك شخص حراً قادراً على فعل ما يشاء من فساد و أمور أخرى؟"

لم يفهم سديم عن ما يتحدث العجوز، يتألم و هو غير مستوعب كيف حدث هذا، فقد كان بين كلام محادثة مثيرة، فإذا به يُسأل بهذه الطريقة كأنه مات و بدأ يحاسَب كما قالت الأم، فأجابه:

"على أي فساد تتكلم؟ و من أنت؟"

الرجل العجوز: "فسادك مع تلك العاهرة التي أدخلت اليوم أمام أعين الناس كأنك تتحدى الجميع و تتخطى الحدود".

عرف سديم ما الناس عنه غاضبة و ماذا يقول العجوز:

"إن الأم ماجنيس ليس كما...

يقاطع العجوز سديم صارخاً: "اسكت أيها الأبله الفاسد، كل المجرمون الذي يصبحون في قبضة من يلقنهم الدرس يصبحون أبرياء و لم يفعلوا شيء"

رغم الجو المرعب و الألم غير المحتمل الذي يشعر به سديم أكمل الدفاع عن نفسه:

"إن الأم ماجنيس مثل أمي و أكثر، إنها جاءت لتتفقد حالي، إنها معلمتي..."

لم يُكمل سديم كلامه إزاء صفعة أحدهم الذي جعلته يشعر بالنمل يمشي في وجهه، بدأ يبكي و يصرخ في وجه من كان أمامه من الجيران. كل الرجال غاضبة منه و لم يثق أحدهم بما يقول.

أخبروه أنه تحت مراقبتهم و تركوا له معازف موسيقية تأنسه و هو مقيد خلال أسبوع و بعدها سيقدم مثولاً أمام القاضي ليحكم في قضيته.

كأن القدر سخر منه و أعطاه فعلاً قاضي حقيقياً يحدد مصيره لكن نتيجة لشيء لم يقترفه أبداً.

أما عن الأم ماجنيس فقد اختفت كما يختفي الهرمون عند نهاية العلاقات الغرامية، لم يجدها أحد من الجيران الذين كانوا يحاصرون سديم أمام المنزل و هي تنظر له و تصرخ، بل لم يعتبرها أحدهم بشرية و ادعوا أنه يمارس الشعوذة أيضاً!

ضل سديم في ذاك البيت القديم التي كانت تسكنه بعض الطيور و الحمام أسبوعاً كاملا، أسبوع من انتظار رحمة أحدهم أو فقط الاستماع إليه، أسبوع كره سديم الموسيقى و كره البشر.

لم يناقشه أحد فيما يريد التحدث عنه، ضل يأكل مرتين كل يوم دون أي كلام يُقال من طرف الرجل الذي يحرسه.

و جاء يوم المحاكمة على الباطل بعدما مرت سبعة أيام من القمع و المعاملة الكلبية التي كان يعامل بها الشاب البريء. أسبوع كافي أن يغير سديم تغيراً جدرياً و أهم ما حمله رأسه من أفكار كان عن كراهيته للطبيعة الإنسانية و إيمانه القوي أن الإنسان أصله الشر دون وضع أي مبرر لهم أنهم فقط لا يعرفون ما كانت الأم ماجنيس تفعله هناك.

أثناء تواجده في غرفة من غرف المنزل الذي وُضع فيه، سمع خطوات أحدهم آتي يقترب من الباب و هو يغني، برهة، انقطع صوت المشي لكن صوت الموسيقى الذي بدأ يشعر سديم بقيمتها الدنيئة أمام مشكل كبير كهذا. بقي مدة لم تتعدى دقيقة ساكن الحرة و على وشك التنفس أيضاً حتى فُتح الباب، عندها كانت المفاجأة في مسمع و بصر سديم.

المفاجأة المسموعة سمعها من الرجل الذي فتح الباب، أما التي رأى تمثلت في وجود هذا الشخص الذي لم يكن ينتظره. ليس المجنون أم الأم ماجنيس أم الراعي بل أب إليوشا "باروق" الذي كان هناك، فتح الباب و هو حاملٌ في يديه صحنٌ فارغ لا يعلم ماهيته إلا الله، يرتدي سترة حمراء و قبعة سوداء عليها بعض البقع المغبرة، في ذاك الصحن كان كتاب بغلاف أسود و يحمل عنوان "الصمت".

نعم الكتاب الذي حدثته إليوشا عنه هو ذاك الكتاب الذي يحمله باروق في الصحن. جعل هذا المنظر سديم يفكر أنه ربما سيحاول مساعدته لأنه الشخص الذي كان قد شاهد ما وقع في منزل سديم و أنه بعيد كل البعد عن مضاجعة الأم ماجنيس أو أنه مشعوذ مع جنية. لكن عندما لاحظ تواجد سكين كبير قُرب الكتاب خاب ظنه و انحنى برأسه ناظراً إلى الأرض كما تنحني

الزهرة يائستاً من أمل سقيها؛ قال في نفسه "إنها النهاية ليس بحكم قاضي أو الراعي أو انتحار بل بانتقام أب لكرامة ابنته، نهاية ليست سيئة كثيراً".

بعدما أغلق مشغل الموسيقى و لعن من شغَّلها تحدث باروق بصوت خافت لكنه مسموع:

"سديم ألبرت. كنت أعرف أن الأيام تخزن لنا ولو لحظة كي نكون لوحدنا في مكان خالي من البشر. كيف حالك؟

ضحك سديم و أجاب: "تسأل عن حالي كي تجعله أسوء أو ماذا؟"

غرز باروق عيناه في سديم معبراً عن قلقه فقال:

"لا تكون ثرثار يا بني، سألتك فما عليك إلا جواب".

سديم: "الحمد لله على كل حال، إنني مظلوم، لكني أظن هذا الظلم سبب أنا.

يتقدم باروق خطوة طويلة إلى الأمام و بحركة غريبة بيده يقول:

"جيد، أحمل في يدي سلاحين و أنت ستختار أي منهم ستواجهه و من هو سيرمي بك إلى الموت المحتمل".

يجيب سديم و لا رغبة له في الكلام بعدما فقد الأمل الحياة و تصور مصيره:

"لا أريد الاختيار، لا أملك حرية اختيار حتى في حياتي، حياتي من الممكن أن تكون عبارة عن أحداث فوق أحد الكتاب البائسون، هكذا أشعر و استغفر لله على ما أقول".

بدون أن يمهد للفعل بحركةٍ ما أو يوحي بكلام أنه سيقوم به، فك الرجل قيود سديم و اقترب منه ليقول:

"حسناً، سأحدثك عن شيء قبل التطرق إلى هذا الموضوع الذي تُجيب عنه بطريقـة غـير مفهومـة، رغم أنـك لا تعـرف عن السـكين أو عن الكتـاب كـل المعرفـة الضرورية. سـأبدأ حـديثي بمقولـة أو مثـل أو اقتبـاس الشـاعر عزيـز في حياتي و هو محمود درويش، يقول محمود: **"كسرك لقرورة العطر، يجعلك تشـتم الرائحـة بقـوة، لكن للمـرة الأخـيرة"**، سـألك سـؤال أريـد منـك جـواب منطقي له؛ عن سبب قولي هذه المقولة، أتظن أنني أوجه لك الكلام على أنك القرورة أم العطر أم رائحة العطر؟"

سديم: "ربما المقصود بي هي القرورة الحامل لعطر الحزن، و ما العطر إلا الفقر و سجن الماضي و ذكرياته الذي أعيشهم.

أحدث باروق صوتاً بيده وهو واضعها أمام يده قائلاً:

"جوابك خطأ، لست القارورة و ما تحمله ربما بعد مرور الوقت سيصبح عادي و منسي، حاول مرة أخرى".

سديم: "إذ لم أكون قرورة فلست العطر الذي تحمله، إذن فأنا تلك الرائحة غير مرغوب في استنشاق الهواء الحامل لها مرة أخرى".

يحـدث بـاروق نفس الصـوت لكن هـذه المـرة يتحـرك حـول سـديم بطريقـة تحرك طائر "الطيهوج":

"كما توقعت، جوابك خطأ مجدداً. لست القارورة و لست العطر أو رائحته. الجـواب الصـحيح الـذي يعكس حالـك في هـذا المثـل هـو الفعـل، أنت كاسر قرورة العطر التي تحمل رائحة تجعل المرء يدمن تذكر أي حدث وقع و أنفه قد اشتم الرائحة".

ينجذب سديم لكلام باروق بعدما لاحظ أنه يحاول التحدث عن شيء غير مختلف عن الذي يتكلم عنه: "لم أفهم كثيراً".

باروق: "أنت من سيقوم بتوقيف كل الشر الذي تراه في حياتك، أنت الفعل و هو الفاعل".

سديم: "الفاعل؟ من؟"

باروق: الكتاب أو السكين، الشيء الذي لم تستطع أن تختاره ليكون محدد مصيرك".

قام سديم من الكرسي الذي ظل عليه جالس لمدة طويلة و استلقى في الأرض بسبب العياء، نظر إلى باروق فقال:

"و كيف لي أن أختار بينهم و أنا لا أعرف ما يعني كل واحد؟"

ضحك باروق بصوت جعله يبدو غريب، و غرز عيناه في سديم مرة أخرى صارخاً:

"تسأل الآن عن المعنى و المنطق، قد سبق أن قلت لك أن كل من الكتاب و السكين أسلحة قادرة على كسر ما تريد أنت، الأمر غير متعلق بالثقة بل عن هل أنت مستعد لتخاطر مقابل تحسين قصة حياتك".

سديم:"هل أستطيع أن أختار الإثنين؟"

خلع القبعة من رأسه بعدما شعر أن هناك شيء ما يُزعجه بها:

"سؤالك خطأ، ليس هل تستطيع بل هل تملك الجرأة؟ إليوشا، قد فعلت شيء لم أكن أرغب أن أفعله أو أسمح لأحد بفعله إنها ابنتي من حدَّثتك عن كتاب "الصمت" الكتاب الذي كتب فيه جدك كل شيء عن حياتك و عن ما

يجب عليك فعله بعدما فشل هو في إقامته. و تحدث إليوشا عن الكتاب خطأ لأته حرق للمراحل لكن هوس الحب من يفعل هذه المشاكل دائماً".

هنا بدأ قلب سديم ينبض أكثر فور سماعه اسم إليوشا، يقفز بسؤاله عنها سائلاً:

"و أين هي إليوشا؟ أريد أن أشكرها، لولاها لكنت أعيش ما بعد الموت لآن. عرفت أنك ستعلم أنها كانت في منزلي".

باروق: "لا، لن تموت حتى تحيا يا بني، لأنك من الناس الذي قُدِّر لهم أن يموتوا بعدما كانوا أحياء و ليس ميتون. إليوشا تم معاقبتها على فعلتها".

زادت النبضات عندما سمع العقوبة و تذكر ما كانت إليوشا تقول عن أبيها و غضبه:

"من فضلك، تكلم عن هذا الكتاب اللعين الذي تصفه كما كانت تصفه ابنتك. و أيضاً أريد شرح للرسالة التي تركتها لي إليوشا في آخر يوم رأيتها".

وضع الرجل يده فوق الكتاب ناظراً إليه و هو مبتسم:

"نعم سأتكلم عنه فهو اختيار من الاختيارات المحددة لمصيرك؛ كتاب الصمت و بين سطوره ضجيج و ضوضاء تجعل الرعب في من يحمل الكتاب متصوراً **لليوم** الذي يتكلم عنه. سأتكلم عن الكتاب انطلاقاً من الرسالة التي تركتها إليوشا لك؛ و هو الجزء المكتوب باللغة السواحلية؛ أغمض باروق عيناه موجهاً وجهه إلى سقف الغرفة و قال العبارة:[11]"Alistahili kutawala nchi, lakini watu walimkataa, kwa hivyo alikusudia kutawala akili na wakati wao katika mamlaka yake, ambayo ni muziki."

11**اللغة السواحلية** كما تُعرف باسم اللسان السواحلي هي لغة بانتو تنتشر على سواحل شرق أفريقيا

سقر باروق بعد تلفظه بهذه العبارة و كان هذا الصمت لحظة توقف الزمن عند سديم؛ فأكمل كلامه قائلاً:

"ترجمة؛ "كان من المفترض أن يحكم البلاد، لكن الناس لم يقبلوا ذلك، فكان ينوي أن يسيطر على عقولهم و زمنهم بسلطته، و هي هدمه لمقدساتهم، و من مهم الموسيقى".

شعر باروق بقلق سديم بعد سماعه هذا فقد ظل ناظراً إليه بطريقة توحي أنه لم يفهم، و أنه شعر أن ما تكلم عنه جد معقد لذلك لم يسأل. لكن باروق لم يتصرف هو الآخر باللامبالاة فقد أكمل الحديث ذاكراً:

" ذَكر جدك في الكتاب بالتطرق إلى التفاصيل أنه كان كفء لحكم البلاد و نيته كانت إعطاء كل ما بوسعه كي تتحسن البلاد و تتخلص من صانعي المشاكل الاجتماعية و الاقتصادية التي كانت تعيشها و التي لا تزال كذلك. لكن بمُشكل ما كان الشعب سببه، تَمَّ رفضه بادعاء أنه رجل غير مستحق لكل ذلك. و بعد كل هذا و نتيجة قوة و شجاعة زهاك التي كانت تجعله لا يرى نهايته إلا عندما يموت، عزم على استعمال **"الجهة الأخرى من الصورة"** ليحكم الناس و ليبين أن "زهاك ألبرت" بطل يستحق أن يذكر التاريخ اسمه".

ظهر النور في وجه سديم مرة أخرى عندما سمع أشياء لا يعرفها عن جده رغم أن الشك لا زال يراوده، لكن تركيزه أصبح حول الكتاب و كلام باروق. نهض من الأرض و هو يتألم مستعيناً بباروق، جلس في الكرسي و قال:

"علي قراءة هذا الكتاب إذ كان يحمل أحداث حياتي المستقبلية التي يجب علي التحرك نحوها، إذ كان هذا هو المطلوب مني، أريد معرفة ما كان يعيشه جدي عندما كان يحاول حكم الناس. لكن مهلاً ألن تنتقم لابنتك؟

لبس باروق قبعته بابتسامة كتلك التي ترسم على وجوه الأشرار فقال:

"لا، لن أقتلك. تَبَقَّت لنا دقائق فقط قبل أن تأتي الجيران لأخذك للقاضي الظالم. لذلك عليك أن تختار بين الكتاب أو السكين أو امتلاكك الجرأة الكافية لأخذك الإثنين".

سديم: "لم تتفوه بأي شيء عن السكين. أليس له قصة هو الآخر؟"

باروق: "بلى، له قصة لكنه مجرد سلاح قد يساعدك إذ أردت الهروب قبل قدوم الناس".

سديم مستغرباً: "الهروب؟ أستسمح لي بالهروب؟ أنت أب إليوشا الذي كذبت عليه كي تبقى معي بنته و ستعطيني لآن فرصة الهروب؟"

باروق ماسكناً السكين بين يديه و هو يلوح: "سيأتي يوماً ما ليس بالبعيد لتعرف من أنا و من إليوشا و لماذا ساعدتك ابنتي كي لا تمت و لماذا أساعدك لآن كي لا تُظلم. حب إليوشا لك كان صادقاً، السكين هدية منها لك بعدما ذهبت للريف بعيداً عن الضوضاء الذي قد تحدثها أنت في الأشهر المقبلة.

منح باروق السلاح لسديم و هم في وضعية كالجنود و أكمل كلامه:

"سأدعك تهرب لأني أعرف أنك بريء مما تُتَّهم به؛ أنا من المارة التي رأت تلك المرأة تدخل منزلك و راودني شك حول تواجدها هناك و أني أعرف حق المعرفة تربية زهاك لك، فتجسست خلف المنزل ناظراً ما تقوم به أنت و المرأة في الداخل. سأدعك تهرب لأنني عرفت لآن شر الناس و حقيقتهم، أنا من الناس الذين عارضوا في السر على ما كان الجد ينوي فعله، لكن الآن عرفت الحقيقة و تفضل هذه الأسلحة مني كمساعدة لك و اعتذار، السكين يضرب ضربة السيف كلما كانت قوة المسك أكبر".

أمام سديم، الكتاب على اليمين و السكين في يساره، ينظر إلى باروق و الثقة و الشجاعة بدأت تظهر في عينيه خلفه بذا صوت قدوم الناس لأخذه:

سـديم:"لا أفهم مـا يحصـل لآن، عنـدما أتيت إلى مـنزلي و أنت تبحث عن ابنتك ظننت أنني فقط كنت أتخيل لكن لم أكن كذلك و لآن بدأت أشعر أني أتخيل مرة أخرى و أنك فقط مجرد وهم معبر عن الأمل الذي أملك لأخرج من هنا دون أي ضرر".

باروق محاولاً المزح مع سديم: "هل تريد أن أفعل ما فعلته إليوشا لك عندما لم تثق بوجودها؟ فلا زال السكين أمامي".

يضحك سديم هو الآخر: "لا لا، طيب طيب، فوجهي لا زال يؤلمني بسبب صفعتها. أنا غير مستوعب كل هذا و من أين أتت هذه الرحمة، لكن رغم كل هذا، لا زلت أكره الناس و أكره الخبث الذي فيهم".

باروق: "ظلم الناس لك كان واضحاً، أهل سمعت يوماً عن مشعل كان زهاك يحمله و قد تركه لك؟"

سديم: "نعم سمعت به من أكثر من جهة بكلام مختلف".

باروق: "إذن، طريق المشعل أمامك لآن و بعد لحظات، أعدائك ستجدهم في كل مكان لكن هناك من سينصرك أيضاً و قوة ناصروك أعظم".

سديم: "ماذا لو لم أحمل هذا المشعال؟ أيعقل أن يكن لي نصير؟"

باروق: "إذ لم تحمل المشعال ستستمر في حمل المتاعب و الكسل الذي كنت تتكلم مع من تدعى الأم ماجنيس، أنت تدري بما تعيشه فاصنع لحياتك معنى و اتبع طريق جدك فالناس قد عرِفت حقيقتهم و حياتك تعرف أن حقيقتها يائسة محتقرة، يبقى لك الاختيار رغم أن لا حرية لك فيه".

أخذ سديم السكين و الكتاب من أب إليوشا ناظراً إليه و هو يتذكر ابنته و خيرها و الخير الذي بين يديه الآن. خرج سديم متتبعاً باروق إلى أن جعل له مخرجاً آمناً لا يراه منه أحد. قال له باروق و هم خارجون مَثَلٌ إفريقيٌ جعل سديم يحرك رأسه مبتسماً عندما فهم المغزى منه: **"الطفل الذي لم تحتضنه قريته، سيحرقها ليستشعر دفئها"**، إياك و الشبح الذي يقدسونه، سأكون يوم ستحرقه هو الآخر".

رد عليه سديم بمثل جعل الآخر فخوراً بمساعدته و متشوقاً لما سيفعله عندما قال: **"ستدرك الشمعة ذات يوم أنها كانت تحتضن فوق رأسها شيء ليس من جنسها و هو سبب هلكها**؛ ما كان على الناس رفض جدي و ما كان على الناس أن يظلموني، لكنهم سيدركون أن ما فعلوا سيسبب معضلة لهم و هم يعلمون".

يتحرك كالجاسوس تاركاً أب إليوشا خلفه و في عينه دمعة ليست للفرح أو للحزن سبباً على ما سمعه عن جده أو بسبب المساعدة التي تلقَّاها من أب إليوشا بل كانت دموعَ أن يشعرَ الإنسان أول مرةٍ أنه حر و أنه يسير بخطوة بمعنى في حياته التي فقد فيها الأمل بطريقةٍ نهائية. يتحرك لآن نحو الأمام و هو يعلم سبب حدوث مجموعة من الأشياء في حياته التي كانت سبب الحزن و التي بدت أنها غريبة.

خطوة وراء الأخرى اتجاه أول مكان فكر فيه، هي مكتبة المجنون، فرغم مجيء أب إليوشا له كان مفاجئاً و سريعاً إلا أنه لم يبعثر تفكيره بل شقَّ له طريق لم يكن يعلم وجودها. يركض في الطريق ماراً خلف حي ضيق الأزقة الذي من الناحية الاجتماعية يجسد نمطاً من التعايش الاجتماعي، التعايش الذي لم يشارك سديم في الحي الذي يسكنه. ظل يركض و في مسمعه صوت

الناس الذين كان في قبضتهم و هو يصرخون عندما علموا أن سديم هرب أو ساعده شخصاً في ذلك.

حركته سريعة كالأرنب؛ كان يخاف من أن يضيع فرصة النجاة الوحيدة أمام خبث الناس الذين ربما يلاحقونه. متجهاً يجري كالخنزير لا ينظر إلا لاتجاهٍ واحد أي مكان تواجد المكتبة و يدعو ربه أن يصل لها سالماً.

لم يفكر في إمكانية عدم تواجد المجنون في المكتبة أو رفض المجنون لاستقباله أو شيء يشبه هذا، لم يفكر لأنه شَعَرَ أن يكون للإنسان مكان يلجأ إليه و هو أمله الوحيد لمستقبله؛ أن هناك شخص في المكتبة يريد أن يعلمه و يقوده للثأر لجده و يحسن حياته.

اقترب من المكتبة بعد نصف ساعة تقريباً من الركض، بدأ يفكر في جده و احتمالية أنه أيضاً عاش الظلم الذي مارسه الناس عليه، ناس كان يعتبرهم عاديين لا يقبل منهم بالسر سوى تقديسهم للموسيقى، لكن حقيقتهم قد فاجأته و جعلته يريد الثأر منهم.

وصل إلى المكتبة و هو يحرك فكّه باحثاً عن هواء يدخله لرئتيه التي تريد الخروج من مكانها، وصل إلى المكتبة و وجدها مفتوحة، الشيء الذي جعله يصرخ منادياً المجنون قائلاً:

"سيد المجنون! بعد السلام، أريد أن أقول لك أني مستعد أن أفعل ما كنت تنتظرني أن أفعله، ربما كنت تنتظرني و أنت تعلم أني سأعود، ها أنا عدت و في قلبي يقين على أن أنتقم من الناس الذين ظلموا جدي، لا يهمني رأيهم و لا تهمني أي شيء بعد الآن، أريد الثأر لجدي و أريد معاقبتهم عن ما فعلوا بي، لم يعد شيء يقلقني و لا آخر يفرحني! أريد لحياتي معنى!".

ينظـر المجنـون إلى وجـه سـديم المنتفخ و المتـورم جـاهلاً السـبب، يصرخ الشـاب لكن لم يحركـه هـذا الكلام أو تواجـده في المكتبـة شيء. سـكت المعلم دقيقة تقريباً و قال:

"إن مـا لا تعرفـه أكـبر و أعظم ممـا تعـرف يـا بـني، لا أريـدك هكـذا، تفضـل بالجلوس و ربما أقول لك تفضل لتختبئ لأن حالتك و كيفية تتنفسك توحي أن هناك شيء أشرس من الأسد يطاردك. أيضاً، أريد أن أنبهك بشيء يا بني و لا أريد أن أكـرر الفعـل؛ لا تتفـوه بكلمـة مهمـة أو الثأر لزهـاك بصـوت مرتفـع، إنهـا سرية!.

غلق المجنون المكتبة بإحكام و هو مستغرب من حالة سديم و في قرة نفسه فرحاً بقدومه الذي كان يظن أنه سيطول أكثر، لكن شر الناس قام بتقريب هذا الموعد الغرامي بين سديم و مستقبله؛ لأن هنا سيعترف الشاب لمستقبله بكل شيء، في هذا الموعد سيقول سديم ما يتمناه لمستقبله عن ما سيعيشه لاحقاً بعد سنين من الغضب و النفر بينهم، في الصفحات التالية سيعترف المستقبل لسديم أن له مكان فيه.

جـاء سـديم في وقت كان فيه المجنـون مـريض بسـبب نزلـة بـرد شـديدة كانت على وشك أن تعيق حركته إلى أجل غير مسمى. و لهذا السبب ترك أي كلام قد يتبـادل مـع سـديم إلى الغـد كي يجمـع أنفـاس أمـام سـديم الـذي يبـدو متسرع للحـديث و الاستماع. أما سـديم كان خائفاً و مسـتغرباً مما قالـه المجنـون؛ أي عنـدما قـال: إن مـا لا تعرفـه أكـبر و أعظم ممـا تعـرف يـا بـني" جعـل هـذا الكلام يتـذكر آخـر كلام وَجَّهتـه لـه الأم ماجنيس بعـد أن تشـابه مـع مـا سـمع للتـو من المجنون كأنه "وهم سبق الرؤية" في حلم لكن دون أي معرفة بسيطة رغم أنه تكرر.

في الصباح الموالي استيقظ سديم بعد سبات في مكتبة الجد بين الكتب و المجلدات، و المجنون ينتظره عند مكتبه الذي أفرغه هذه المرة من أي شيء. بعدما تناول سديم وجبة الفطور اللذيذة نسبةً لما كان يأكل في الأيام السابقة، جعل بعض ضمادات على الجروح ثم ذهب إلى المجنون ليتحدث معه عن ما يحمله الكتاب من رسائل و توجيه له.

وجد المجنون ينتظره و في عيناه عياء شديد، علم سديم سببه لكنه أسرَّ على التحدث معه كأنه لم يلاحظ أي شيء لا في وجهه أو في طريقة تحركه. لكن المجنون معلم و هو يَعْلم ما يريد المتعلم إخفائه و ما يريد الإعلان عنه لذلك لم يخفى عنه أمر لامبالاة سديم و عزم هو الآخر أن يتحدث عما جعله متعب لهذه الدرجة؛ و هو الشيء الذي سيوضح به سبب عدم بحثه عنه كل مدة اختفائه؛ أي عندما غادره و هو غير مستوعب ما يريد المجنون أن يفهم. استبق المجنون الحديث قائلاً و أن:

"لم تسمع بخروجي باحثاً عنك بعدما خرجت من هذه المكتبة في آخر مرة، لم تسمع هذا لأنه لم يكن بسبب شيئين، الأول هو أن في الليلة التي غادرت فيها هذا المكان كانت قد تكون آخر ليلة لي في هذه الدنيا لأن خلالها شَعَرْتُ بقدوم قابض الأرواح إلي ببطء، شعور جاء مع ألم لم يفت أي منطقة في جسمي؛ صداع الرأس، برودة الأطراف مع الألم المرافق لها، أمعائي كانوا يرقصون كأنهم يحتفلون بوفاتي التي كانت على وشك الحدوث لولا قدوم الأم ماجنيس التي جعلت الألم خفيف تلك الليلة بمضادات أسرع صديقٌ لها بالإيتاء بهم، أما الشيء الثاني هو أنني أكمي موضوع المهمة لأنه كبير و خطير على أفراد هذا المجتمع الغريب و لا أريد البحث عنك لكي لا يعرف أحد أني ربما أعلمك شيئاً عنه.

يحضر المجنون مشروب له و للضيف الاعتيادي و يكمل الكلام:

" أتت الأم ماجنيس فقط لتخبرني أنها وجدت شخصاً في الحي الذي تسكن فيه قد يكون لك سَمْيَر خلال مدة تعلمك تلك، لكني رفضت. في تلك الليلة كنت أفكر في وفاتي التي تعني نهاية ما يريده جدك أن تقوم به أو تعلمه قبل أن تفعله. الأم ماجنيس هدية من الله أو استجاب لدعائي عندما أقول "ربي جعل عمري أطول مما هو عليه إنني أريد أن أجعل عقولهم معك و ليس مع حركات أصوات مرتبة مقدسة لعينة".

سـديم: "مـاذا؟ أفهم كلام أي شـخص يتحـدث عن جـدي إلا عنـدما يتفـوه بشيء عن الموسيقى و علاقته بها".

ينحي المجنون إلى المكتب و عيناه لا جزم هل هي مغلقة أو مفتوحة:

"دَخَلْت حاملاً الكتاب الذي يحدثك عن ما سألت للتو، دخلت به لمكتبة شخص يعلم ما ستواجهه و ما عليك أن تفعله. لكن هذا الشخص الذي يريد أن يعلمك كل هذا يقول لك: لم يتبقى الوقت الكافي لكي تقرأ الكتاب و تفهم بتمعن ما يحمله من معنى، إنني أكبر من جدك سناً و وقت رحيلي لم يتبقى له الكثير، و خصوصاً قد لاحظت أن استماع الناس للموسيقى و حبهم لها يزيد. أريد توجيهك و جعلك تفهم كل شيء عن مهمتك في هذه الحياة و بعد هذا، ما تريد أن تفعل بي الدنيا سأكون مستعداً له.

سديم: "حسناً كيف سأتعلم و أين؟

المجنون: "حسنا سأخبرك بما أنت مقبل عليه؛ لدي ما يقارب ثلاث أيام من الحديث عن ثلاث أشياء، الأولى قصة جدك عن كيف أصبح منبوذ المجتمع، الثانية عن الموسيقى في هذا المجتمع و علاقة كل فرد بها و هو الموضوع

الذي لم تفكر يوما في حقيقته. ثم أخيراً المهم التي جعلها زهاك ثأراً له من الناس و الذي استخدم فيها الموسيقى.

الحماس يُرسم في وجه سديم: "أنا مستعد لهاته الأيام و مستعد للحقيقة التي سأواجهها فيها".

ابتسم المجنون رغم معرفته أن هذا الحماس يزول سريعاً بعدما تبدأ الأمور:

"طيب، سأبدأ اليوم بقصة كفاح جدك، كيف جعله الناس يخلق جزء في ذاته لا يعرف شيء اسمه الخير ملهوفاً على الاستبداد؛ كما ذكر في الكتاب قبل أكثر من عشر سنوات من موته كان قد انتهى من الاعتكاف في بيته الذي فيه كان يقرأ و يبحث عن كل شيء يخص الإنسان؛ من سيكولوجية كل فرد إلى السياسة. درس علوم التربية، خلال هذه الفترة الطويلة، كنت فقط أتراسل معه ورقياً دون أي تجمع ولو لليلة واحدة.

كان لا يريد أو لا يحب الجلوس مع الناس أثناء بناء أفكاره الجديدة مع الحرص على جعل زوايا نظره مختلفة. ظل يفكر في الحلم الذي اتخذه عندما لاحظ و رأى و كره الحالة التي عليها المجتمع، اتخذ إصلاح هذا المجتمع حلماً و تحدياً في نفس الوقت، لم تكن قصص الناس الفاشلة التي سبقته تجعله يتراجع و يصنع حلما بعيداً عن الناس و أنظارهم. لكن رغم شجاعته كان يخاف من تحقيق هذا الحلم و يخاف أيضا من عدم تحقيقه. سأريك رسالة من الرسائل التي كانت تصلني من جدك؛

"إنني أريد إصلاح هذه الأمة و لما لا إصلاح العالم يا صديقي إبريز، لكنني أخاف من فشلي في ذلك أو فشلي في الوصول إلى ذلك. لم أغفل يوما عن التفكير في يوم تحقيق هذه الثروة التي تخص روحي وهي "الإصلاح". لا بد أن

تعرف جماعة من الناس أن المدعو ألبرت زهاك قادر على فعل ما يريد و أن له السلطة و القدرة على ذلك، اسمي عليه أن يعيش حتى و إذ مات جسمي".

سديم: "إنك إبريز؛ الذهب الخالص الذي كان يملكه جدي فقط، إنك صديق وفي".

المجنون: "جدك كان يملك كل شيء وصولا إليه بالعمل، لا وقت لنا ولوا أخبرتك بأعجوبة كيف تعرفت عليه. إذن، بعدما وجد زهاك معرفته قد نعت و وصل إلى حد الظهور للناس كي يبين كفائته و نيته الحسنة، خرج و بدأ بتأسيس جمعيات تهتم بتحسين ظروف و منهج التعليم بالبلاد. كانوا الناس له من الشاكرين و المرحبين بأفكاره القيِّمة بحيث لم يأخذ الأمر الكثير من الوقت حتى أصبح زهاك أب الطلبة و صديق بعض الأساتذة. بعد عام من العمل و الجد قابله التشجيع و المساندة من أهل المدينة، جاءت فرصة التسجيل في لائحة المرشحين لرئاسة المدينة و تسيير شؤونها، حينئذ كانت الأنظار كلها له و لأعماله المشهودة، لم يفلت الجد زهاك الفرصة و قد نال ثقة الناس الذي ختروه راعيهم و راعي شؤون مدينتهم. من هنا إلى هناك كان زهاك خادم المدينة و لا يشغل باله سوى النهوض بها، حتى وصل اسمه في البلاد كاملة.

العمل و النية الحسنة من قادوا جدك إلى كل هذا، لا يمثل أنه سيد الناس خادمهم و لا يسرق ولو دقيقة من عمله. تواصل المشوار و تواصل العمل الجاد معه إلى أن تخطى مسؤولية المدينة و الجهة المتواجدة بها حتى وصل إلى منصب وزير العلم و الشؤون التعليمية. كل هذا لم يأخذ وقتا كثيراً يا ابني سديم، الزمن سريع خصوص إذ كان المرء فيه مشغولاً باله بشيء.

ماتت امرأة الوزير الذي كان يَزِرُ وازرة تمثل مستقبل البلاد و ضمان استمرارية نجاح الأجيال القادمة، توفيت جدتك عندما كان زهاك في سفر لحضور اجتماع دولي في مدينة سراييفو حيث برز زهاك حضور دولتنا و اهتمامها بالتعليم بدرجة أولى. ماتت و موتها زاد حمل ثقيل حمله الوزير في قلبه لكن لم يجعله ضعيف بل استمر في العمل دون التوقف و التأمل في حزن ضياع زوجته في وقت كان يحتاجها. آهٍ كم أرعبني الوقت لآن و أنا أتحدث عن كل هاته السنين بسهولة و طريقة موجزة، إنني أظلمها صراحتاً و أظلم ناسها لكن في سبيل الوقت سأكمل الحديث غداً يا سديم بنفس الوثيرة، سنكتفي بهذا اليوم.

سديم: "حسنا، سأحرص على أن أستوعب كل هذا و أتخيل زهاك السياسي، سأقرأ الصفحات الأولي من الكتاب.

يخاطب المجنون سديم و هو مغادر:

"احرص أيضاً أن تستحضر جدك و هو يكلمك لأن الصفحات الأولى من الكتاب كانت تقريباً موجهة لك.

سديم: "شكرا أيها المجنون، لا أعرف سبب تسميتك هذا الاسم لكن سأناديك به.

أخذ سديم و هو في مكان نومه الجديد بين الكتب و الأوراق في المكتبة كتاب جده؛ الصمت، و عزم على أن يقرأه جهراً و ليس و هو صامت. وجد مقدمة باسمه الجد زهاك، قرأ:

"باسم سديم روبرت، باسم من أريده قراءة الكتاب قراءة عملية و ليس كي يعرف شيء أو أشياء، سديم، إن كل من تراه حولك فاني ولن يبقى شيء في هذه الدنيا غير الله تعالى، إن ما سمعت أو ستسمع عن حياتي ما هو إلا كلام جد

موجز مما عشته و قمت به، لذلك لا تأخذ كثيراً من الوقت كي تفكر فيما قد تفعله أو لن تفعله فأنا لم أعش فوق حركة الوقت بل كنت موازي لها أو أحاول فعل ذلك. لم أكن إنسان يحب السلطة أو قيادة الناس، كنت شخص يحاول أن يضعه الخير على الأرض و يرحل. اعلم يا بني أن ليس هناك شيء في العالم أقوى من الحب؛ حب بلادي من جعلني أضحي بحياتي من أجلها لكنني لم أفكر يوماً أن هناك من يكره هذا البلاد دون أي سبب مقنع أو وجيه، حبي للبلاد جعلني قوي و جعل القدر يقدم لي أصحاب معرفتهم لا تقدر بأي شيء مثل المجنون الذي ستكون غالباً ما تعرفه. سديم لا شيء سهل كما تراه في حياتك، حتى هذا اللسان الذي به تقرأ يجب عليك أن تحذر من ناس يملكون حسد في قلوبهم ليس في مظهرهم لقراءتك هذه.
تواضعي للناس تجاوز الحد الذي تتصوره، مثل شخص عرف فتاة فقط بتصوره و حبه لها فاق ذاك التصور، ربما هذا هو خطئي الذي جعلني أبحث في ما قد يُنْشئ حرب بيني و بينهم، نعم يا سديم كنت أنا سيدهم و خادمهم فأصبحت بعد واقعة حدثت أزرع لهم كمين يجعلهم يدركون قيمتي، سيادتي و خدمتي. يا سديم في هذا الكتاب ستجد ما يجب عليك معرفته كما وجدت الناس الذين عرفتهم في الكتب الذي تركت لك. لا تخف و لا تكن مغرور فما أردت أن أفعله قد يبدو مرحاً و سهلاً لكن القرار لأخذ المبادرة لفعله لا يبدو لا مرحاً و لا سهلاً، لا تكن مغرور يا بني".

بعد قراءته بالجهر للصفحة الأولى، الصدمة في محياي سديم، لم يكن ينتظر معرفة أمر جده أنه هو الأخر يملك شعور الكراهية تجاه الناس بعدما سمع النصف الأول من كلام المجنون عن المهمة التي كانت تشغل وقته. الصدمة طردت النوم و نادت الشك الذي بدأ يطرح أسئلة عن سبب كل هذا و ما جعل جبل خيرٍ أن ينقلب حفرة شر عميقة، تمنى الموت كي يلحق بجده و

يسمع الجواب مباشرةً و ليس من المجنون أو غيره. لكن في الأخير بعدما أطال النظر إلى سقف المكتبة و التفكير قاده إلى أماكن تعذر فيهم الإبصار، عزم على النوم لأنه اعتاد على حياة بهذا الأسلوب الذي يشبه التهتهة في النطق الموسيقي، ينطق بها إلهام كاتب في أعماله الأولى نحو طريق لبناء آداب.

اليوم الموالي، تأمل سديم شروق الشمس بأمل بعد ما قرأه الأمس في الكتاب عن جده، استنشق الهواء البارد بشجاعة رغم أن عبارة الجد له" لا شيء سهل كما تطمئن لمكانته في حياتك" ظلت مسموعة في داخله، تذكر كل أحداث حياته المحيرة، تذكر غروب الشمس الذي كان يكتب أثناءه عن ذاك الراعي، و اشتاق أن يكتب إذ تم هناك منظر آخر أنيس في تلك اللحظات. جاء المجنون و أحضر معه وجبة الفطور، لم يكن سديم في مزاج يشتهي الأكل، فقط احتسى الشاي و انتظر و هو يتصفح بعض الكتب بدء المجنون الحديث؛

المجنون: "سأجيب على أسئلتك يا سديم التي ربما جعلت عقلك غير قادر على التفريق بين الباطل و الحق، ما رويته البارح عن جدك الذي كان مستعد أن يموت فداء لهذا الوطن العجيب كان في الحقيقة لكنه لم يستمر، و السبب حسد الناس و حقده، إن الله يقول في قرآنه الكريم: "إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ". كانت فئة من المجتمع لا تنصر جدك و لا تسانده في مخططه، هم من النوع الذي لا شيء يشغل حياته لأنهم فاشلون و لأنهم كانوا يتشتتون أمام الحقيقة حينما كان زهاك يواجهها. قد عَلِمت ما حصل لك مع الأم ماجنيس و ما ذلك إلا حقد الناس و طاعتهم لشياطينهم، لقد أتت إلى هنا و أخبرتني بكل شيء، لم يكن الأمر بالنسبة لها مشكل أو صدمة،

لأنهـا عاشـت مـا يكفي أن تعـرف حقيقـة النـاس عنـدما لا يتبعـون الحـق و يعيشون على هواهم.
الفكرة، إن الفكرة يا بني هي أخطر و أقوى شيء موجود، لا توجد فكرة سيئة، اعتـاد الإنسـان على أن يزيـل السـيئ و يبقي الحسـن لكن هـذا لا ينطبـق على الفكـرة ولـول كان لمـا جعـل مجموعـة من نـاس هـذا المجتمـع **فكـرة** جعلت الشعب ضد جدك بعدما كان معه. الفكرة شيئ لا يفنى بل تتطور و صدقني إن قلت لك أنك ربما تعيش بفكرة متطورة لأبونا آدم عليه السلام. الإنسان دائماً يفكـر و التفكـير يأتي نتيجـة مـا يسـمع، يـرى و مـا قـد يتخيلـه، الفكـرة جيش لا يستهان به لأن الواحدة قادرة على أن تلد المئات و كل ذلك بمساعدة الوقت و المعرفة المسجلة.
فكـرة أن زهـاك مجـرد لص يحـاول خـداع النـاس و الاسـتواء على عقـولهم من أجـل مصلحته لا غـير، هي من أثارت غضـب النـاس بعـدما اسـتغلت غبائهم. الناس يا سديم في هذا الوقت تميل إلى تبني ما يسئ إليهم أكثر من ما يُحسن إليهم، دماء سُفكت لا من الجهة التي تحب جدك و تثق به أو الجهة الأخرى أي الفئة التي قادهم البغض و الحقد إلى تبني الفكرة الخاطئة أما الباقي كانوا الكلاب التي تنبح وراء أي القافلة. ما يسمى "معضلة عربة الموسيقى" هـو ما حصل، و بعد جل هذه الأحداث، المكتبة هي المكان الذي اختبئ فيه جدك لمدة طويلة حتى ظن الناس أنه مات في قبضة أحدهم.
في هذه المكتبة سجن الشك زهاك بأسئلته حتى بدأ يشك هل كانت له نوايا أخـرى غـير تحقيـق المصـلحة العامـة أو أن طريقـة العمـل كانت تعطي هـذه الصورة، لكن كنت أنا و الأم ماجنيس و بعض الأصدقاء من يتصدوا لكل هاته الأفكار محاولين إثبات أن الناس حقيقتهم هي الشر.

بين أسابيع قليلة أصبح زهاك منبوذ المجتمع و أصبح عدو الجميع بعدما كان صديقهم، بعد مدة ليست بالقصيرة كتب زهاك كتاب يدحض به الحق معبراً أنه كان صادق النية و الفعل و القول خلال المدة التي عمل فيها و أن ما جعله عدو الجميع مجرد دعاية؛ شيء سهل الفعل و صعب الفهم و غريب-خطير التحرك، نشداناً لإسقاط الباطل و تبيان أن عقول الناس هي السبب و أنهم يصدقوا ما لا يعرفون أو يسمعون لأن في هذا العصر المتطور كل فرد من المجتمع أصبح قادر على التفوه بكلام كيفما أراد.
شَكلُ طرح أفكار الكتاب كانت كفيل كي يتراجع الناس عن ما كان يفكرون به لأن زهاك كان يملك يد سحرية و لغة للجميع، لكن رغم هدوء الوضع لم يقدر زهاك العودة لمقامه و لقلوب الناس، لأن ما قد وقع يا سديم أفسد كل شيء، كم من مقال صحفي كتب كم من أمِي تحدث و كم من فكرة ولدت لم يقدر الجد على إسقاطها.
رغم الظروف التي أعاقت نشاط سديم فمن كان يثق و يراه الحق لم يتخلى عليه و سانده إلى أن خرج بعد ثلاث سنوات في اجتماع سري بينه و بين من سانده منذ البداية. هنا سأتوقف يا سديم و هذا نصيب اليوم من الحديث، لا أريد أن أكثر الأحداث عليك لتعيش كل يوم موضوع. غداً ستكون الموسيقى عنواننا.

سديم: "حسناً، حسناً إنني علمت بحقيقة الناس أيضاً لكن لما الناس ظنوا بي ما ظنوا بجدي؟

المجنون: "شيء عادي لأن الوقت والجانب الشيطاني يهديان للناس أكبر مشكل و هو التفكير في الشر، فمنذ حصل هذا و الناس لا زالت تشك أن زهاك فعلاً إنسان شرير و صاحب الصفة غير الحسنة، لذلك من الطبيعي أنهم يظنون أنك تشبه جدك".

سديم: "حسناً، لكن ماذا عن الكلام الذي كان يذكر في السحر و الشعوذة؟"

المجنون: "هو كلام غير خاطئ، لكن عندما ستعلم الغاية ستحب و تعطي مكانة كبير للوسيلة. ربما بعدما تبدأ مهمتك لن تبقى "الغاية تبرر الوسيلة" مقولة انتهازية، لن تصبح أخلاقية لكنها لن تبقى انتهازية. ستعلم كل شيء قريباً يا سديم.

يضحك المجنون مغادراً المكتبة قائلاً:

"سيصل الوقت قريباً، استمتع بوقتك في المكتبة و إن أصابك الممل اخرج العب مع من يطاردك، ستزورك اليوم الأم ماجنيس إذ سمح لها الوقت أن تفعل".

أخذ سديم الكتاب و خرج خلف المكتبة جالساً في البستان المُهمَل، بدأ يقرأ عما كان يحدث عندما صار الناس يكرهون جده، قرأ خواطر كان يكتبها زهاك من شدة الحزن و الخذلان من الناس الذين كانوا هم ركيزته التي جعلت له مكانة عالية في البلاد. قرأ بعض النصائح التي كان يتحسر الجد على عدم معرفتها مثل عدم جعل مصير الشخص في شيء غير مستقر "كالجماهير" من البشر، و مهما عُلِي شأن شخصٍ ما سيأتي يوم يجب عليه ممارسة الشك و طرح الأسئلة.

الكثير من النصائح قدمها الجد لحفيده قبل أن يبدأ بالتحدث عن الموسيقى و كيف كل الأحداث التي وقعت جعلته يرجع لتكوين علاقة وطيدة مع هذا الشيء الخسيس.

بعد قراءة العشرات من الصفحات، جاءت الأم ماجنيس كما قال المجنون و هي في حالٍ أفضل مما كان يظن سديم أنها ستكون. جلس الإثنين وسط المكتبة لكن تكلم واحداً منهم و هي الأم ماجنيس محاولتاً مساندة سديم و التخفيف عنه في هذه المرحلة التي يمر منها قائلتاً:

"لم تكن حياتك هكذا إلا لأن حياته كانت كما أنت تقرا عليها لآن، إن من الشائق أن يعرف الإنسان أن كلما يجري في حياته نتيجة لأحداث من الماضي.

ابتسم سديم ابتسامة المختل عقلياً فأجاب على كلامها قارئً بعض عبارات الكتاب:

"السديم؛ تكاثف أو تجمُّع نجُومٍ بعيدةٍ تظهرُ وكأنها سحابة خفيفة، أو بُقع ضعيفةُ النورِ، هذا هو دورك في مسرح الحياة. عليك يا بني إثبات شخصيتك و نحت اسمك في التاريخ، عليك أن تكون من يجمع أعدائه أجمعين في دقائق سيشهد لها العالم بالمعرفة أو بالأساطير، و لن تُنسى مهما وقع من أحداث مستقبلاً". لا أعلم لماذا تتكلمون معي هكذا، لا أعلم لماذا تتحدثون على مسؤولية لي لا أعرفها و عندما أسأل عنها تتثاقل ألسنتكم! لماذا؟"

الأم ماجنيس: "ستعرف غداً، أتمنى أن يبقى كل هذا الحماس في تصرفاتك إلى ما بعد معرفتك به".

يغضب كلام الأم الأخير سديم و يجيبها:

"لماذا سيزول الحماس بعد كل هاته الأمور التي تقع؟ بعدما عرفت حقيقة شر الناس و ما يسعون للوصول إليه الجد و المجنون، كيف سيبقى الحماس بعدما أصبحت أناجي الشبح إذ تمكنت من تصوره؟"

تجيب الأم ماجنيس بطريقة تحاول صُنع الهدوء:

"عن الناس، ليس كما تتصور يا سديم لكن أغلبهم، ما حاول الجد فعله كان محاولة لبيان الطريق لهم بوسيلة ربما قبيحة لكنها الطريقة التي بها يفهم بني آدام".

سديم: "أتمنى غداً يكون يوم معرفتي لما تقولينه، لأن الأمور اختلطت كثيراً بعدما عرفت الشر في البشر و رأيته في جدي و صديقه".

الأم: "لا تخف فالحق و روح جدك معك يا بني، إياك و الخوف فهو من يجعل الإنسان في دائرته المملة عديمة المعنى و الفائدة و إياك و قبضة الشبح فهو من يزرع الخوف".

نهض من مكانه و الغضب و الدمع يحمل الغضب في عيناه: "لن أخاف، فلا أملك شيئاً أخاف أن أخسره، لن أخاف".

تغادر الأم ماجنيس و قبل أن تخرج قبَّلت رأس سديم و قالت له: "حسناً، الحديث صعب معك يا سديم، عندما كنت قادمة كنت أظن أنك متحمس لمناقشة بعض الأمور لكنك لا ترغب في ذلك، سأذهب الآن و تذكر أنني قلت لا تخف من أي شيء فما وراء الوهم هو الحياة".

يمر الوقت على سديم بغرابة تجعله يشك في وجوده، نعم يشك في وجوده. فقد رحلت الأم ماجنيس بعدما أنهت الحديث معه دون أي جديد يذكر حول ما سيعيشه، فقط يأتي شخص يزيد من الظن بما يسمونه "المهمة". و لا يعرف هل سيكون يدور حول السياسة أو الموسيقى أو شيء من هذا القبيل الذي كان يخص حياة الجد زهاك.

حل المساء بغروب شمسٍ جميل لكن دناءة مزاج سديم حرمت مشاعره من التقاط هذا المنظر و الاستماع به، حل المساء على سديم الذي بدأت حياته تعطي له طابع الشعور بالملل الكئيب، و بصدفة جميلة قبل أن يغادر المكان وجد في المكان الذي يجلس فيه يقرأ الكتاب راعي غنم و بعد البقر يمر من هناك، جعله المنظر يحضر قلم و ورق و يكتب كما كان يفعل:

"بابتسامة مواجهاً الخوف إني أكتب لآن بعدما وجدت راعي غنمٍ، ليس الراعي الذي كنت قد جعلته محدد مصيري، ليس الراعي الذي كنت أصفه بطريقة جميلة و بمشاعر ضعيفة، إنه راعٍ آخر. ليس الراعي الذي كنت أحاول أن أجعله أنيسي أو الذي جعلته، ليس الذي كنت أصف منظره كاتباً: "منظر السعادة مستمر و يا ليت الشمس تقف لتستريح هي الأخرى، لا أملك قدرات كافية على الرسم و لو كانت لرسمت لواحات لهذا المنظر و علَّقْتُهَا في منزلي عسى أن يبتهج قليلاً"، إنه راعي فقط لا أعرفه و لن أعرفه و لن أكتب عنه حتى لو بدأت أرى منظر له يجعل حياتي شيئاً ما سعيدة. أكتب لآن فقط لأن ليس لي شيء آخر أفعله، و لقد فهمت لآن لماذا ليس معظم الناس يريدون أن يصبحوا كُتَّاب، ليس لصعوبة الأمر أو لغياب هذا الفن في الثقافة بل لأن ليس كل الناس تعيش ما يعشنه الكتَّاب الأدبيين بالخصوص. أريد أن أحَدِّثَ نفسي و أنا أكتب، أريد أن أسأل لماذا لست متحمس كثيراً لمعرفة ما سيخبرني به المجنون رغم أني أعيش في حزن سببه عدم درايتي الكاملة بما كان يعيشه

جـدي، لمـاذا؟ سـأجيب و ربمـا سـأخطئ، لكنـني سأصـحح مـا قلت عسى أن أشعر بمكان تواجد ذاتي المفقودة. هون عليك، حسناً يا سديم، كنتَ حزين بسبب وفاة جدك و بعدها بسبب ما عرفته عنه؛ أي استعماله للسحر و كذا أمور، كنتَ تجهل السبب إلا أنك لآن تعرفه و هو أن جدك يريد أن يستعمل السحر للثأر. ما قالت الأم ماجنيس لك مهم يا ذاتي، لا تحزني و لا تخافي، إن حياتي لآن و أنا قريب من عمر العشرين هي إلا نتيجة لما فعله جدي بغياب أبي، و هـو الشيء الـذي جعلـني أنـا من يتحمـل المسـؤولية. ماضي جـدي هـو السـبب الـذي جعلـني أعـرف أشـخاص كالأم مـاجنيس و المجنـون محـاولين مساعدتي لأخـرج من مخلفـات حياة جـدي و أبـدء حيـاتي إذ سـمح القـدر. لا تقلقي يـا روحي، الفـرح سـيزورنا يومـاً مـا في المسـتقبل، و السـلام الـداخلي سيسكننا مستقبلاً، لا تقلقي".

بعـد هـذا الكلام غـير الفمـوي الـذي يُعتـبر رد على سـؤال سـديم و اصـطناعه القليل من الهدوء الداخلي، عاد إلى المكتبة بعدما حلَّ الظلام المستبد. دخل إلى المكتبـة و بـدأ يتجـول بين الرفـوف المخيفـة محـاولاً تمضـية الـوقت و الابتعـاد عن شـعور مراقبـة الـوقت، عـزب تفكـيره في هـذه اللحظـة عن كـل المشاكل و الأمور، لم يفكر في أي شيء فقط يلاحظ بعينه و يمررهم عن كل ما هـو موجـود في المكتبة إلى وقف مركزاً عندما قرأ ما قال **عَدِيًّ بن زَيدٍ :"عَنِ المَرْءِ لا تسْأَلْ و أَبْصِرْ قَرِينهُ فَكُلُّ قرِينٍ بالمُقارَنِ يقْتَدِي"**. سكت بعد قراءته لهذه العبارة رغم أنه لم يكن يتكلم، لكن تصرفه و تعبير وجهه كانوا يوحيان إلى صمتٍ داخل صخب.

جلس بعـدها مُحـاولاً إسْـقاط هـذا الكلام عليه لكن لم يجـد أحـد يريد السـؤال عنـه، حـتى لـو كـان ليس هنـاك قـرين بـه يقتـدي. أسـقطه عن جـده و وجـد

المجنـون مُقـارن يقتـدى بـه، و لـولا سـجن الأفكار الـذي سـبَّبته الدعايـة عن أفعال الجد لكان أكثر من شخص يقتدي به.
نام بعدما غـرق العقـل في مشاهد أحـداث الماضي مركـزاً عن الأيام القليلة التي يعيشـها سـديم بعيد عن كل هـذا الضجيج، فنَام بأمل يملكه كان يَأْمَلُ به أن يعرف حقيقة عن الجد حول الموسيقى ويسمى المهمة.

الفصل الرابع:

المهمة، المقطع الموسيقي و الموسيقار.

أول أيام الخريف، الشمس مُختبئة وراء غيوم، غيوم شكَّلت تجمعها ملامح وجه ينظر إلى الأرض سارقاً السمع، عندها كان مسمع سديم يتلقى أشياء لم يكن يعرف أن الوجود اعترف بها. هكذا كان صباح اليوم الذي انتظره القارئ أكثر مما انتظره سديم و المجنون، صباح كان غير مشمس فقد بَخَلت الشمس أن ترمي ضوئها فيه على سكان المدينة كأنها عرفت أنها ضياء لمن لا يسهل ضياؤها.

كان المجنون يرتدي وقتها لباساً ذو مقامٍ غير متواجد فيه، لكن شكل هذا اللباس سيساعده على إلقاء مقالٍ سينسي سديم في أي مقامٍ هو موجود. بصوت فيه لحن جميل يقول المجنون و هو ينظر إلى سديم:

"الموسيقى، الشيء الذي لم تكن لك معرفة حقيقية به رغم أنك وصلت العشرين من عمرك و رغم أن الموسيقى أنت ضميرها المستتر. ربما لأن الظروف لم تساعد أو لأن عقلك كان مهتم بشيء آخر، حب و حزن و بحث عن البهجة، المهم هو أنه ليست لك دراية كافية بالأمر و علاقة كل فرد من هذا المجتمع به".

جعل هذا الكلام سديم يظن أن المجنون يحاول تغيير الصورة التي يملكها عن الموسيقى باعتبارها أنيسه الوحيد. فأجابه محاولاً الابتعاد:

"لا أظن أن لها أهمية تطابق الكلام الذي به تصفها يا إبريز، إنها فقط أصوات مرتبة تجعل من يسمعها في مزاج جيد".

المجنون بنظرة استنكارية: "فعلاً ليس لها أهمية لكنك تدمنها، إن لها وهم تجعله سحر مزروع في مسمع أي شخص تلقَّاها بعقله أو بقلبه الذي يتوهم الكثير من الأشياء.

سديم مبطِّئاً طريقة كلامه: "إذ كانت غير مهمة و أن الناس فقط تتوهمها، ما سبب رغبتك في الحديث معي عنها".

يصفق المجنون بعدما حصل على ما كان يبحث عنه و هو السؤال الذي طرحه سديم و يقول:

"طيب لآن قد قلتها؛ الوهم، الوهم يا سديم هو السبب. تكلمنا في يوم سابق عن قوة و خطورة الفكرة و ما الفكرة قادرة على فعله، أليس كذلك؟

سديم: "نعم، طبعا قد فعلت".

المجنون: "إذن اليوم سأحدثك عن الوهم و هو ثاني أقوى شيء في هذا العالم الواقعي، إذ تم زرعه فقد زُرِعت الفتنة و قامت حرب بين عقول الناس، حرب لا تُرى و لا تسمع إلا عندما تنتهي و جعل الناس تعرف خسائرها. الوهم يا سديم به ستثأر لجدك، به ستَعرف الناس نَسَبَ ألبرت و ما هم قادرون عليه. يا بني، الموسيقى تنتج وهم يجعل بعض الناس يقولون" :الموسيقى ميزان الوجود، ما صح وزنه دخل القلب و الروح معًا و ما اختل وزنه يبقى خارجها"، "الموسيقى هي أقرب شيء بعد الصمت يمكن التعبير بها عما لا يمكن وصفه أو لا يجوز وصفه".

يقاطع سديم الكلام و يسأل: "و هل أقوالهم غير صادقة؟"

المجنون: "بلى، صادقة لكن لأجل ماذا يا سديم؟ ما ماهية الموسيقى؟ هي لأجل ماذا في نظر المستمعين؟ إذ كانت الموسيقى شكلاً من أشكال التعبير عند البعض فهمْ من لديهم الصلاحية لتعظيمها و ليس المستمعين. لماذا يقدسها الآخرون في الوقت الذي لديهم أشياء كثيرة في هذه الدنيا تحتاج التعظيم و تعظيمها يُعتبر طريقٌ الفلاح؟

سديم: "مثل ماذا؟".

المجنـون: "تعظيم الحـق و المنطـق، تعظيم العلم المهـدي إلى المعرفـة، تعظيم الكثير و الكثير. أنا أتكلم عن مجموعة من الناس و ليس الكُل، أتحدث عن من يُدْمن الاستماع للموسيقى و لإجلال القدر و إكرامه أن معظم من فعلوا بجـدك المكـروه و كـانوا سـبب ضـعفه هم من يُقدسـون الموسـيقى، بهـذه الطريقة و هنا نقطة الثأر تناديك يا بني.

يتعجب سديم من قول المجنون و يسأله: "كيف أن وهم الموسيقى سيكون سلاح الثأر؟".

يلوح المجنون بيده موجهاً السبابة إلى سديم و يقول:

"حسناً سأجيب، إن العقل يُحدث التقاط الأشياء التي تراها العين و تسمعها الأذن كل مرة على هذه الآلية؛ توجيه بعده مشاعر بعده فكرة ثم فِعل و أخيراً النتيجـة. بعـد تـدريبك السريـع سـتتعلم كيـف تجعـل التوجيـه وهم و جعـل المشاعر ضعف و الفعل غير إرادي، ثم تصبح عقول الناس بين يديك.

سديم: "عن أي تدريب تتحدث؟".

المجنون: "إنه فقط تعليمك لمجموعة من الأشياء و معرفتك لأخرى".

بحماس مغلف بورق الخوف يجيب سديم: "من طرف من؟ و متى؟".

"إنك من النوع الذي لا يعجز عن السؤال حتى لو كان يملك شك حول أن الإجابة قد تكون غير مُرضية. حسناً، سأعلمك أنا و سيعلمك أب إليوشا؛ من أعطاك الكتاب.

إجابة جعلت سديم يقوم متعجباً من مكانه بسبب تراكم الأحداث الجديدة، و التي بدأت تطرح بعض الأسئلة:

"أتعرفه؟ إنه من ساعدني على الهروب من بطش أهل المدينة؟

تعادل رزانة المجنون اندهاش سديم فيجيبه: "

"نعم، نعم يا سديم قد فعل، هو بخير الآن. و إنه من الذين كانوا ظلموا جدك لكن عندما عرفوا أنه تعامل بالحق و ليس بسوء أو ظلم، أرادوا نصره و أنت هو السبيل لهذا.

سأسألك عن موافقتك على المهمة بعد أن أحدثك عن "علاقة الموسيقى بالسحر" و لماذا أراد جدك أن يستعمل هذه الأشياء للثأر؛ كانت الأيام التي ما كان يدور في رأس جدك إلا أنه منبوذ المجتمع تمر في المكتبة هنا، كان جدك عندها جد حزين و غاضب من عدم معرفته ما سبب كل هذا لذلك كان يجلس وحيداً دائما دون الإحساس بأي وحدة أو ملل مبرراً مكوثه وحيداً ب "ما دام أن من كان أنيسٌ البارحة جعله في هاته الحالة اليوم فلا أحد يستحق المرافقة". كان يجلس وحيد و يطلق من مذياعه معزوفة موسيقية جميلة كان قد سماها "الملجأ"، و في هاته المعزوفة كان هناك مقطع يجعل للجد إلهام الحديث لمدة جد طويلة.

مرت تلك الأيام من حياة الجد بنفس الوثيرة و الجو، نفس المعزوفة الغنائية و نفس الحزن و الغضب، إلى أن أتاه في أحد الأيام نَبَأً كيد أعدائه له، و ما يصنعون له من كمين ليجعلنه يعيش آخر يوم على أيديهم الشريرة؛ فقد استعملوا السحر و استندوا إلى أكبر السحارة في البلد كي يجعلوا آخر أيامه سواء مريض أو مجنون أو أسوء من هذا.

ردة فعل جدك على هذا الفعل القدر كانت ذكية رغم أنها كانت بطيئة لكنها كانت الضربة التي أفاقت زهاك و أعادت إحياء حركته، و أيضاً هي التي جعلت الناس يُلَقِبْنني "المجنون".

ردة الفعل كانت ذكية لدرجة أن الأغبياء لم يستطيعوا إدراكها و الإنسان الضعيف بطبيعته عندما لا يستطيع أن يدرك شيء أو يصل إليه يسخر منه و

يستصـغره فاستصـغروا أمـر الجـد، لكن بعـدها شـكروا الله على أن القـدر لم يكتب للزهاك أن يكمل ما يريد أن يفعل.

يشرب المجنـون بعض الميـاه متنفسـاً و يكمـل: "جَنَّ جنـوني و مـرض زهـاك مـرض لم يـزر جسـم أحـد من قبـل و لن يـزره بعـد؛ هـذه الفكـرة الـتي جعلنهـا متداولـة بين النـاس في كـل تجمعـات البلاد، زهـاك قـد مـرض و إبريـز أصـبح أحمق. لم تكن مجـرد فكـرة فقـط بل كنا أنا و الجـد نتعامل معهـا كأنها حقيقـة فالجـد اختفى اختفـاء الميت ليس المـريض فقـط، أمـا أنـا كنت ألبس لبـاس يجعلني في صورة أحمق و أركض في الشوارع متحدثاً مع أي شخص رأيته.

سديم مقاطعاً المجنون: "و هذا كله يا عم إبريز كان في سبيل ماذا؟".

المجنون: "نعم يا بني، كان في سبيل الانتقام، تمثيلنا هذا كان أول خطوة كي نجعل الحق حق و الباطل باطل. عند اختفاء جدك على أساس أنه مريض، كان في ضيافة أحد أصدقائه الذي أعطاه فكرة من ذهب رغم صعوبة القبول بأخـذها، لكن لا منفـذ كـان غيرهـا. كـان صـديق جـدك اسـمه سـليمان، قـال سـليمان ذات مـرة مخاطبـاً زهـاك: إذ ضَرَبْنَكَ بالسـحر فضربهم بمثلـه. أجابـه زهاك قائلاً أن أخلاقي و مبادئي لن تسمح لي صديقي بذلك، لم يقنعه سليمان بأخذ الأمر و تركه يفكر في الحل بنفسه.

مر يوم و من طبيعة الحال أن ساعات كثيرة مرت على الجد و هو يفكر، و من حسن الحظ أن بعد كل هذا التفكير وجد زهاك العبقري المنفذ ليس بالسهل لكنه كان يستحق التضحية.
خُذِ استراحة، اشرب فيها شيئاً ما و استرجع أنفاسك لأن ما تبقى لنا في محادثة هذا اليوم أعظم ممن مر".

نهض سديم من مكانه متَّجِهاً نحو البستان تاركاً المجنون في المكتبة، نهض المجنون هو الآخر و جلس خلف المكتب محدقاً في كتاب الجد؛ "الصمت" و في نفسه يقول: لقد بلغت من الكلام مع سديم ما جعلني أقترب من أن أتلفظ بما أنهى حياة زهاك، هل أقول أو أكذب؟ حتى و لو تجرأت على قولها، كيف سأتحدث له عن من سيتعامل معه في هذه المهمة؟ هل سيصبر؟هل سيتحمل كل هذا؟ لا أعلم، ما إلا أنا رسول زهاك لذلك ما علي إلا أن أُبلِّغَه بما أرادني زهاك أن أفعل، نعم سأناديه لآن و سأقول له كل شيء: "يا سديم تعال إلى هنا لنكمل الحديث".

يجيبه: حسنا يا عم إبريز، ما المنفذ الذي وجده جدي؟".

المجنون: "أخذ بنصيحة سليمان و استعمل السحر كما فعلوا أعدائه".

سديم مستصغراً و مستعرباً كلام الذي قاله إبريز: "فقط؟ هذا كله ما فَكَّر به؟".

إبريز: "لا، ليس السحر فقط. عندما كان يناقش و يَحْبُك الفكرة التي قدم له سليمان، كان يستمع لتلك المعزوفة الغنائية التي حدثتك عليها سابقاً، لكن في هذه المرة لم يكن الاستماع لهاته الموسيقى بالأمر الاعتيادي الذي كان في الأيام السابقة، بل هذه المرة الموسيقى جعلته يسافر بعقله سفراً لم يسافر مثله في الواقع، تخيل فيه ذكريات الماضي في الحاضر، فَكَّر في الناس كثيراً لدرجة اشتياقه لبعضهم و شعر بالعجز للانتقام، كل هذا بسبب مقطع موسيقي. و من هنا أتت الفكرة لزهاك و أراد بها الانتقام و هي الاستحواذ على عقول الناس بالموسيقى و ذلك باستعمال السحر بعدما عزم على رد السحر بالسحر و عرف وهم الموسيقى".

سديم: "كيف ذلك؟".

المجنون: "بمساعدة الجن و الشياطين".

جعلت كلمتي الجن و الشياطين سديم في حالة من الصدمة الدوران و الدهشة فتمتم قائلاً:

"ماذا؟ أ أ أهذا ما أنت تحاول أن توصله إلي؟ أهذا ما سميته المهمة؟"

المجنون: "نعم يا سديم، على مهلك، لا تقلق إن الأمور ستسير بخير".

سديم: "مهلاً؟ الشياطين هم و جن من كانوا معي طوال هذا الوقت؟ كل مرة أفتح فيها بعض الكتب كانت تشتت انتباهي؟ عفريت هو من كان معنا في المكتبة وقت التعلم و قال لي شيئاً ما عن الحرية !؟".

المجنون بصوت مصطنعاً الهدوء الذي ربما لن يحصل: "كل هذا صحيح يا سديم؟ لكن لم يؤذيك أحد أليس كذلك؟".

يجعل الغضب عيناي سديم باللون الأحمر عوض اللون العادي و يصرخ: "حياتي كلها حزن، غالباً السحر هو السبب يا مجنون!"

المجنون: "أنا مُتأكد أنك مُخطئ يا سديم، و لدي الدليل على هذا؟".

سديم يقول بعدما كسر كل القنينات التي توجد على الطاولة: "ما هو دليلك؟ حتى لو كان، أهل أكن ممن يستعملون هذه الأشياء للوصول إلى رغباتهم؟".

المجنون: "حسناً، إن قلقك هذا جد عادي يا سديم، كنت أعلم بحدوثه. انظر لن يمسك أي ضرر، بْقى هنا في المكتبة هذه الليلة و غداً سيزورك (أب إليوشا) و سيحدث عن أي شيء تريد معرفته، لا تقلق إن الأمور ستسير بخير".

سديم: "كيف؟ أبقى هنا و الشياطين من حولي والله أعلم بما تحاول أن تفعله؟".

صبر المجنون ما يكفي محاولاً تهدئ سديم لكنه هو الآخر يفقد صوابه قائلاً:
"لا تملك أي خيار آخر يا سديم بين اختيارك للخروج للإنس الذين إما سيقتلنك أو ليعذبنك، و لقد حاولوا أن يفعلوا هذا من قبل، أو البقاء هنا مع كائنات لا تعرف عنها أي شيء و لن تؤذيك رغم أنها تعرف عنك الكثير!".

صراخ المجنون لم يسيطر على الوضع بل جعل سديم يزيد من تحديه له و التعبير عن استيائه ماسكاً زجاجة بيده:

"شكل كلامك يا مجنون كأنك به تذيِّق علي ما أنا أحاول أن أفكر به، كأنَّ لم يبقى لي أي شيء أنا المتحكم فيه. لماذا تفعل كل هذا؟ لماذا لم تدعني أعيش حياة بعيدة عن جدي و ما كان يريد فعله، بعيداً عن حياته؟ لماذا لم تدعني.

فما كانت ردة فعل المجنون عندما رأى المنظر هذا إلى الرجوع لتهدئة الأمور:

"ستكون لك حياة بعد كل هذا، تصبح طبيب كما كنت تقول لجدك و أنت صغير لا تقلق و لا تخف، رغم الحياة قصير المدة إلا أنها طويلة المعنى و مدة استغلال الفرصة من أجل المعنى تبقى مستمرة".

سديم يبكي من شدة التوتر تركاً الزجاجة: "كفاك تفوهاً بهذا الكلام الذي لا ينفع لآن، من فضلك اخرج و دعني وحيد يا عم".

المجنون: "حسناً يا سديم سأفعل حسناً، كما قلت في الصباح سيأتي باروق و ستفهم، أرجو أن تفهم ما أنا أحاول أن أقول، أرجو أن تفهم أن هذا في صالحك و ليس في صلاح شخص آخر أو ضياع للوقت.

يجيب سديم و هو جالسٌ في الأرض و عقله مشتت: "ماذا أقول؟ أتظنني سأرفض فرصة ربما ستكون سبب معرفتي ما أجهله؟".

المجنون: "أعانك الله".

بعد هذا الحديث الصاخب الذي لم يخُضه سديم قبل، انصرف المجنون غير راضي على ما فعله، طريقة كلامه و طريقة فهم سديم كلامه جعلته مُخَيِّبً للأمل في قبول حفيد زهاك المهمة. أما عن الشاب فلم يتحرك من مكانه

بسبب الخوف و بسبب الصدمة الذي سببها المجنون، أخذ الأخير يتساءل عن السبب و ما سيكون إذ وافق على الفعل و إذ لم يفعل مناجياً نفسه:

"يقول إبريز أن كل هذا من أجل و من أجل اسمي، لكن كيف؟ ماذا لو رفضت؟ هل ستعاقبني الجِن؟ هل سيعاقبني المجنون؟ هل سأمضي في حياتي كأنني فعلتها؟ لكن ماذا لو فعلتها؟ هل ستكون تُمثل معنى لي في حياتي؟ ما المعنى في أخذ الموسيقى و استعمل الشعوذة لسيطرة بها على عقول الناس؟ تباً لعقول الناس، تباً للمعنى، تباً لاسمي و تباً للموسيقى. قالها ذاك المجنون، فقد كبرت بحلم أن أُصْبِح طبيب، لكن كل ما أوصى به جدي قتل حلمي و لم يسمح لأي حلم آخر أن ينور حياتي و تصوري للمستقبل. ربما لم أكن مُخطِئ عندما فكرت في الانتحار، و لولا تلك اللعينة التي تدعى إليوشا لفعلتها، ولكن لا بأس فإنني كما قال كاتبٌ تائهٌ مثلي: **"أيامي أصبحت مخيفة، جميلة لكن متميزة. هذا يجعلني أحس أنني على خط حياة ليس أنا من سَطَّره، ليس لأنني غير قادر على عيش كل هذا لكن لأن الوثيرة والطريقة التي تمر بها كل هاته الأشياء وثيرة خيالية، جعلتني غير قادر على تصور حياتي المستقبلية إذ كانت. رغم أن لي طريق أريد السير فيها"**. هذا الكاتب كان تائه لكنه وجد الطريق في الأخير؛ وجد ذاته المفقودة، قال في جزء آخر جميل يتحدث فيه عن الحزن؛ **"إن الحزن في الأخير شيئ ذو معنى، لأن المرء يكون حزين بسبب ما لا يعرفه و هذا ما يسَبِّبْ له الحزن"**. سأنام لآن متمنياً أن يأتي الغد بشيء جديد و جميل غير هذا الكلام المتكرر، المغضب و الممل.

بعد هذا الحديث الذي تمتم به سديم في المكتبة معبراً به عن صعوبة استعاب كل ما يحدث، وضع فراشه قرب باب المكتبة، استلقى جاعلاً كتاب جده موضوع بين يديه بطريقة لا توحي أن يريد قراءته أو توحي أنه يريد تقطيع

صفحاته، ثم أغمض عيناه كأنه يقوله لها "من فضل لا تفتحي مرة أخرى" ثم نام.

في الصباح لم يستيقظ سديم كعادته مبكراً، بل نام حتى وصلت أشعة الشمس إلى مرقضه، لكن ليس هذا الذي الشيء الأخير من جعله يستيقظ أو يشعر بتأخره، أيقظه صوت فتح الباب مع بعض ضجيج تحريك أثاث المكتبة، فزعه الصوت لكنه لم يقم من مكانه ظناً أنه المجنون فقط من أتى و يريد إكمال الحديث معه الذي جعله في حالة هيستيرية كالبارح، لذلك لم يتحرك أو يقوم من مكانه رغم أنه مستفيق، معبراً عن غضبه و نفره من المجنون، فمثَّل أنه لا زال نائماً ليستبق المجنون الحديث معه و ليس هو.

ظل نائماً منتظراً المجنون لكنه لم يأتي، فسئم الاختباء كالضعيف و نهض من مكانه قائلاً:

"السلام على من لا رحمة و لا شفقة له على أقاربه".

لم يرُدْ عن كلامه و لم يظهر حتى، سمع بعدما قاله فقط خطوات طلوع الدرج بطريقة متسرعة. لم يجعل سديم أي ردة فعل أمام ما سمعه ظناً أن المجنون تجاهل وجوده و كلامه. فعزم على مغادرة المكتبة بعدما بدأ يشعر باستصغار و تحقير من مجنون بعد الكلام الذي قاله الأمس و تجاهله صبح هذا اليوم؛ لبس ثيابه و حمل حقيبته ثم قصد الباب فإذا به يسمع منادي ينادي باسمه بغِلظة يقول:

"يا سديم! أي موطن لا نعرف أنك منه أنت قاصده؟ يا سديم! هل تعي مدى صعوبة و خطورة أن لا تكون لك دراية كاملة بما يجري في حياتك حتى و لو كانت صغيرة؟ عُدْ و اجلس يا مايسترو المدينة".

أُرعِب سديم بعد سماعه هذا الصوت من مكان لم يتمكن من معرفته، لكن بعد ثواني قليلة و بصعوبة تعَّرف على صاحب الصوت و هو "أب إليوشا"؛ باروق، فستعاب أنه نسي زيارته التي تكلم عنها المجنون الأمس، فعاد إلى داخل المكتبة و هو يتأسف للرجل عن استقباله بتلك الطريقة قائلاً:

"آسف يا سيد باروق إني ظننت أنك العم إبريز، شجار بيني و بينه الأمس كان سبب تصرفي لآن أمامك هكذا.

باروق: "لا بأس أيها الشاب، فإنك لم و لن تراني و أنا أدخل المكتبة، عُد و اجلس، أريد أن أحدثك من بعيد".

سديم متفاجئ مما قاله: "باروق" :من بعيد؟ لماذا؟ أهل حصل لك مَكروه يا عم أم ماذا؟".

باروق: "لا يا سديم، اجلس لنتحدث و حسب. ليس لدي الوقت الكافي و الكلام الذي أريد أن أقوله لك وجيز و مهم، بعد ذلك لك باقي الوقت و افعل به ما شئت.

سديم: "حسناً، أنا كنت أسأل فقط عن إذ كان بك مكروه أنا سببه قد يسبَبه الأعداء التي كانت تلاحقني لأنك أنت من ساعدتني. و هو ما دفعك أن تبقى مختبئ هكذا.

باروق: لا تكن ثرثار كالمرأة، أريد أن أتحدث فكن لي مستمع. أعدائك الذي ظلمنك غير قادرين على إلحاق أي ضرر بي و لو كان ذلك ممكناً. لا تخف فكل شيء على ما يرام، بقي شيء واحد و هو موافقتك على إكمال مهمة جدك يا سديم".

سـديم: "إنـني موافـق، بغض النظـر على الـدافع الـذي جعلتـني أتخـذ قـرار كهذا".

بـاروق: "لا أظن ذلـك، لا أظن أنـك سـتوافق بعـد معرفتـك لشيء واحـد لم تسمع به بعد".

سديم: " هل موضوع الجن و الشياطين؟ قد حدثني إبريز عن ذلك سابقاً، إنني أستسلم لهذا رغم خوفي الذي يجعلني غير قادر على التحرك".

باروق بصوت غليظ جعل سديم أكثر انتباهاً: "نعم إن هذا هو ما أريد أن أحدثك عنه، لكن هل ذات يوم أن تحدثت مع جن أو شيطان من قبل؟".

سـديم: "لا يـا عم، لم أفعـل و ربمـا هـذا هـو التـدريب الـذي تكلم عنـه العم إبريز، عن كيف أتعامل مع الشياطين و بعض الأشياء كهذه".

بــاروق: "نعم، أنت لآن في التــدريب و اليــوم هــو لقائــك الأول مــع الجن سيكون يوم رائع لا تخف".

زاد خوف سـديم حتى أصبح يرتجـف: "كيف؟ هل ستدعو جني يحضر معنا لآن؟ و في المكتبة؟".

باروق و بصـوت خـافت لكنـه غليـظ: "لا تخـف فأنـا الجـني يـا سـديم و إني لصديقٌ أمين لك و لما تريد أن تفعل".

تـوقفت الحركـة، بعـدما قيـل من بـاروق، توقـف الـزمن للحظـة ليسـتدرك هم الأخـر ما حصل، صُدم سـديم بعدما عرف أنه يتحدث مع جِنِّي أي أن إليوشـا هي الأخرى ليست من البشر. ففقد الوعي و سقط أرضاً.

لم يقترب منه "الجني باروق" محاولاً إغاثته، انتظر حتى يستغيث و يساعده ليبين له صداقته و أنه لا يريد به ضرر.

فتح سديم عيناه ليجد نفسه مستلقياً في المكان الذي كان فيه وقفاً، غرس وجهه في الأرض واضعاً يداه فوق رأسه و بدأ يصرخ خائفاً مستنجداً المجنون قائلاً: "إبريز أرجوك أنقذني من هذا الكائن! أرجوك!"، استمر في الصراخ لبضع ثوانٍ حتى بدأ يشعر بشيء قوي يرفعه فوقاً ببطء و عناية كما يحمل الأب مولوده الحديث للمرة الأولى.

زاد صراخ سديم و شُلَّت حركته بسبب الخوف، استمر الجني في حمله إلى أن وضعه فوق أريكة كان يجلس عليها المجنون. فور أن وضع على الأريكة أراد الهروب من لكن دون جدوى، الأبواب مغلقة بإحكام و النوافذ أيضاً، لم يبقى له إلا منفذ واحد و هو التحدث إلى الجني و الاستماع إلى ما يريد أن يقول.

ينظر سديم إلى جميع الأماكن أمامه موجها للجني الكلام متلعثماً:

"ماذا؟ تريد؟ قل ما شئت و دعني أخرج لا أريدك و لا أريد هذه المهمة".

باروق: "حسناً، إن الشيء الذي كنت أود أن تعرفه قد عَرفْته؛ أنا جني و قد تمثلت لك في هيئة بشر عندما كنت أساعدك، لا تخف فإني صديق أمين. لا تخف، إن الأمور تسير على ما يرام. المهمة التي يُقال لك أن عليك فعلها تُمَثِّل الراحة و الطمأنينة بالنسبة لك، شيء صعب أن لا يكون لك وطن! لكن على الأقل يجب أن تكون مرتاح، و أسوأ شيء يمكن لأي بشر على هذه اليابسة الوقوع فيه هو؛ **أن لا تجد منفذ لك أمام سوء الحياة،** لذلك يا سديم إنني أوجه لك الكلام و أنا متحمس لمساعدتك؛ مهما وقع، و مهما ساءت الأحوال فإن المهمة ستكون مريحة لما تبقى لك في حياتك، و هي النتيجة الأخيرة، حتى إذ ساءت الأوضاع **فإن الراحة توجد رغم صعوبة بلوغها، و أن في هذه الدنيا سوى أن تتعب من أجل الراحة أو تتعب من أجل الصبر على إلافها!**

تمتم باروق بعد هذا بكلمات لم يفهمها سديم و صمت صمت الانصراف".

صوت باروق عند تحدثه كان خشن شيئاً ما، لكنه كأنما كان يحاول أن يصطنع من اللطافة به ما يجعل سديم هادئًا، فما كانت ردة فعل سديم إلا أنه حرك رأسه و هو يرتجف كالعادة و لم يرد بأي كلام حتى شعر أن الجني انصرف إزاء صوت تحرك سَمَعَهُ آنذاك.

خرج هو الآخر من المكتبة راكضاً كما دخلها آخرة مرة، خرج سديم المسكين و كالعادة يُطرد من أي مكان دخله بنية صادقة، لكن الظروف أو الأقدار تشير إلى أنه مرحب به في مكان واحد مع أشخاص محددين؛ المجنون و الشياطين. خروجه هذه المرة كان متميزاً، فقد كان يجري خائفاً من أي مكان كأنه في سباق حواجز و هدفه هو ألا يقف حتى يصل إلى نقطة لا يوجد فيها العالم الذي يعيش فيه، هي نقطة النهاية لكن قبل هذه النقطة توجد العديد من المسابقات عليه أن يفوز بها و إلا تجمد أدائه و ظل مع المتسابقين المتأخرين في كل سباق.

وصل إلى الحي الذي يوجد فيه بيته و بدون أي تفكير أو اتخاذ لهذا القرار ذهب متجهاً نحو البيت راغباً دخوله لكن دون أن يراه أحد، لذلك دخل من مكان يمكن القول عنه سري و لا أحد قادر على التعرف عليه. دخل سديم المنزل و وجده جد مُخَرَّب، لاحظ أيضاً أن مجموعة من الأشياء لا توجد حيث اعتقد أنها سُرقت ممن كانوا في البيت ذاك اليوم عندما كانت الأم ماجنيس في ضيافته. رغم كل هذا لم يبالي سديم أو يحزن على ضياع أشياء منزل جده، جلس على أريكة قديمة متسخة يحمل غبارها رائحة براز الطيور التي تجد هذا البيت وطناً لها.

كان الظهر عندما وصل سديم إلى المنزل...! دخل غرفة الطابق العلوي ساعياً إيجاد شيئاً يأكله كي لا يفقد وعي أو يمرض بسبب الغَرَثِ الذي أضعف حركته

بعد الركض، فإذا به يلاحظ الورقة التي تركتها له إليوشا فَفُزِع من إمكانية تواجدها معه تلك اللحظة؛ لأنه تذكر الشخص الذي كان يَدَّعي أنه أباها هو جني و ليس من البشر، فشكَّ أن هي الأخرى منهم تريده أن يقوم بالمهمة، فقد تمثلت له في إنساني، تكلمت معه و ساعدته من الابتعاد عن الموت كما فعل الجني الآخر، فقد كانوا فقط يمثلون عنه في الأيام التي كان فيها سديم يريد الانتحار، مثلت الجنية أنها مهتمة به و مثل الجني أنه غاضب منه.

خرج سديم من تلك الغرفة و عقله لا يقف عن الأسئلة؛ أسئلة يعرف جوابها لكن كال الأجوبة لم تجعله يطمئن، و أسئلة أخرى لا جواب لها حتى الآن. تجول في البيت بابتسامة و هو يخطو خطوات بطيئة و وجهه يوحي أنه يريد أن يقترف شيء ما.

في المكتبة، إذ دخل المجنون معتقداً أنه سيجد سديم و قد يكون غيَّر موقفه اتجاه المهمة، لكن المكتبة كانت تضم فقط هواء بعض الرياح القوية الذي ظهر داخل المكتبة حاملاً بعض الأوراق يرمي بها حيث أراد. عندها عرف المجنون أن الجني لم يفلح في إقناع سديم بأي من الطرق، فأخذ يفكر في آخر حل و آخر خطوة خطيرة سوى أن يقتنِع بها سديم أو يقف روائي هذه القصة من كتابتها؛

المجنون مخاطباً نفسه: "لا أعرف، هل أعترف أم ماذا أفعل؟ هل سيستوعب سديم حقاً أن هناك اعتراف آخر، أكبر و أعظم من أنني قد قلت له أنه سيتعامل مع الجن و الشياطين؟" يناجي المجنون نفسه و هو يتحرك داخل المكتبة بطريقة كالصفة التي بها لُقِّب؛ "قد يَحُتُّم القدر عليه أن يعرف هذا الأمر الأخير بالطريقة هذه أو بأخرى، لكن العيب و المشكل إذ لم أعترف له بها لآن. إني مذنب مهما فعلت، لأنني منذ أن مات الأخ زهاك عمدت على إخفاء سبب موته و هذه هي غلطتي".

بعد لحظات من الكلام الذي ردده المجنون، يدخل سديم بغرابة و في توقيت غير متوقع، على وجهه العياء و الرضى بكل شيء. ابتسم للمجنون و قال:

"السلام عليك يا عم إبريز، و بعد كل هاته الأحداث و بعد محادثتي للجني و رفضي لما قاله، فأنا لآن مستعد أن أخوض حيثيات ما تدعونه "المهمة" إذ كان هذا يسعد من مات و يدع الحي أن يعيش متجها إلى موته المحتم على أحسن الأحوال فإني مستعد".

اندهش المجنون من ما يقول الشاب و خاف في نفس الوقت:

"كيف يا سديم؟ كيف أن تعود بعد ساعات من تحدثك للجني و كنت رافضاً لكل هذا و لآن تقول أنك مستعد"؟

ضحك سديم بطريقة توحي أنه يحبس دموعه بقوة بسبب حزنه و تشوشه العظيم و قال:

"قال الجني كلمات و صوته رسمها في مخيلتي و أنا الآن أحاول أن أطبق ما رُسم. دون أن تسأل عن ماذا قال سأخبرك يا عم؛ **حتى إذ ساءت الأوضاع فإن الراحة توجد رغم صعوبة بلوغها، و أن في هذه الدنيا سوى أن تتعب من أجل الراحة أو تتعب من أجل الصبر على إلآفها**. إن صوته يجعلني أشعر لآن أن كل هاته الكلمات التي قال مجرد أشخاص، و كل تلك الأشخاص تتحدث و تحاول أن تضربني بالكلمات كي تحركني و تضعني في الطريق الذي يتجه إلى الراحة".

بكى المجنون بعد سماعه كل هذا لأن أخيراً سيتحقق حلم صديقه، بكى أيضاً لأنه شعر بالضغط و كيف أن يعيش شاب حاضره و مستقبله بماضي جده.

اقترب المجنون من سديم ماسكاً يده بقوة فقال بصوت ليس بالخافت و ليس بالعالي:

"إن ما جعلني أضغط عليك بكلامي في الماضي منذ أن كنت صغير يا سديم هو سبب وفاة جدك الذي أخفيته عنك، و اليوم قد قُدِر لي أن أتفوه بهذا الأمر؛ إن المهمة ثأر لغدر جدك لأنه مات بالسحر يا بني! لا تحزن سنثأر.

ضحك سديم حتى نزلت دموعه و قال بصوت خافت كأنه لا يريد الإفصاح عن هذا الأمر:

"أهل تظن أن ما يتفوه به فمك و ما قد أكتشفه مستقبلاً في هذا العالم اللعين سيُحزنني؟ أهل هناك أكثر من أن تشعر أن حياتك لا تَحْتَمِل إلا معنى واحد و أنها من إلهام كاتب على أوراق في مكان يكتبها؟ أهل الحزن هو السيناريو الدائم الحدوث؟ لا، لا يا صديق جدي، قبل الظهر ذهبت إلى المنزل و هناك استسلمت، في المنزل خسرت كل ما أتمنى أن أملكه؛ أصبحت

أملك مناعة بسبب الأشياء الذي وقعت، و ما قد يحدث من هنا فصاعداً إن لم يكن سبب موتي فلن يتزحزح شيئاً فيما أعيشه و لن يبدِّل شيء فيما أشعر.

استغرب المجنون، و احْمَّر وجهه كأنه اختنقت بسبب كل هذا الكلام، و أراد أن يصطنع شيئاً من الجو الحنون الذي به قد يشعر سديم انه ليس وحيد لكنه لم يجرأ على ذلك بسبب عدم قدرته على حتى التحرك أو التلفظ بشيء ما.

قال سديم بصوت قوي و خشن محركاً يديه أمام وجه المجنون:

"أحتاج إلى جلسة أو اثنين مع ذاك الجني" باروق"، كي أعرف ماذا حاول جدي أن يفعل و سأحاول إكماله إذ نجح الأمر سيكون ذاك اليوم هو آخر يوم تراني و آخر تحادثني أو تعرف شيء مما أعيش".

تمتم المجنون بسرعة و لهفة بعد عدم ستعابه ما: "حسناً، حسناً، شكراً لك، أبشر يا زهاك".

هرول إلى الخارج متجهاً إلى بيته لأنْ ينبأ الجني بعد أن يدعوه و يخبره بالبدء. لكن الجني لم يكن خارج المكتبة قط، إذ صبر حتى خرج إبريز من المكتبة و نادى سديم قائلاً:

"سديم، النجم الموسيقي، قد قبلت أن تلعب بعقول الناس، أخذت قرار لا تعرف إذا كان صحيح. اسمع يا سديم، بعد أنت تفهم ما أخذه مَسْمَعَك تكلم بما يريد أن يخرجه فمك؛ كنت هنا و سمعت ما قاله لك المجنون و ما قلت له، أنا الآخر قد استغربت من ردة فعلك لكن بعد تأملي لها وجدتها أنها المنطقية في الواقع، إنني أعرفك منذ أن كنت صغير و أيضاً راقبتك عندما كنت تكبر، إنني مستعد أن أفدي حياتي من أجل هذه المهمة يا سديم من

أجل تبيان حقيقة التعلق و تقديس الموسيقى التي قد أفلحت أن تخفي عن عشّاقها ما قد عرفه جدك و أخبرنا به. جدك بالمناسبة يا سديم لا ساحر و لا مشعوذ و لم يفكر قط في التعامل معنا على أساس فعل الشر، إنه فقط أخبر ساحراً كان يعرفه بما كان ينوي أن يفعل و لم يتردد الساحر على إخبارنا نحن، و مع كثرة الكلام عن ما يريد جدك فعله وصلني أنا و مجموعة من الجن الكلام، قد أعجبتني الفكرة كثيراً و لا أريد أن أفلت فرصة فعلها حتى لو كان الأمر يكلف حياة".

ينظر سديم إلى الأرض و يجيبه:

"أثق بك أو لا أفعل هذا ليس شيء ضروري، قد قلْتَهَا أنت من قبل؛ إنني أبحث عن الراحة لكن أنا من النوع الذي فُرض علي أن يألف ظروف ما كي يشعر بتلك الراحة اللعين رغم أنني أرى الراحة الوحيدة التي توجد لا تكون إلا في الموت. قبل أن آتِ إلى هنا تأملت حياتي بطريقة لم أفعلها من قبل و استسلمت بعدما وجدت الاستسلام هو مصير مقاتل يشبهني، ليس لأنني ضعيف أو شيئاً كهذا لكن لأن الاستسلام هو ما قد يعطي لحياتي معنى لآن، مصارعة الأحداث و مصارعة ما تريدونه أنتم لا معنى له. السبب الثاني هو جدي، لا أظن أن ما تريدون فعله بالموسيقى يُعتبر ثأر للطريقة التي قُتِل بها جدي، لكن على الأقل هذا ما كان يريده أن يكون.

يرفع سديم رأسه و الدموع في عينيه تأبى النزول رغم ظهورها و يقول:

"هيا يا جني علمني و حدثني عما تريد أن تفعل، فإنني فاقد المعنى و أريد أن أنهي كل هذا و يكون آخر حياتي كذاك الراعي الذي كنت أشعر عندما أراه مع خرافه أني إنساناً طبيعي الحياة".

بعد موافقة سديم لخوض "معركة العقول"، دعا الجني كي يخبره و يعلمه بما سيفعل. لم يظهر الجني لسديم بل تمثل في الجسد الذي كان به يتمثل من قبل، أما الشعر كان أبيض و وجه كان متجعد كثيراً. بصوت غير مستقر الطبيعة يبدأ الجني باروق بالتحدث إلى سديم دون الاقتراب له:

"ماذا تعرف عن الوهم يا سديم؟ ترى هل إذ قلت لك هناك أشياء تُعتبر وهم بذاتها و ذاتها مبنية على وهم و خطورة و ميزة هذا الوهم تجعل المرء يستقبله على أنه حقيقة، هل توافق كلامي؟

رد سديم و بإصرار ظهر في ملامح وجهه:

"نعم، لم أظن من قبل أن جدي كانت ستأتي لحظة فيها يغفل بها عن كل ما يعيش؛ أقصد أن جدي كان من الناس الذين لا يسمحوا للأشياء أو "الأوهام" أن يخضع عقله لها. لكن هذا حصل و اكتشف جدي به خطورة الموسيقى و ما هي قادرة على فعله.

يتحرك الجني بشكل غريب في ذاك الجسد و يقول لسديم:

"إن جدك يا سديم لم يكن يريد أن يعزف مقطعاً موسيقيا ما، أو إنتاجه أو الخروج للناس و دعوتهم لعدم أو للاستماع لمعازفٍ ما. بل أراد أن يجعل عقول الناس المدمنون على الموسيقى تحت تأثيرها و كما تعرف أو كما حدثك المجنون أن جُل ناس هذا المجتمع مدمنون على الموسيقى. و ما ستفعله سيجعل كل من يُدمن الموسيقى في العالم بأكمله تحت هذا التأثير، و من لا يدمن و لا يستمع لا خوف عليه لأن لم يجعل سعادته محصورة في شيء، و لن يقلق مما قد يكون عليه بعد أن يقع ما ستفعله".

لأول مرة يشعر سديم بما يسمى الحماس و يجيب الجني بسرعة: "ماذا سأفعل أنا و كيف؟".

أجاب الجني هو الأخر بنفس وثيرة سديم:

"أولاً، إنك تدعى من الآن فصاعداً "المايسترو الحزين"، لأنك عشت كثيراً من الوقت بأشياء نتجها جدك جعلتك حزيناً و دون موافقتك أو معرفك بوجوده. لآن سأحدثك عن ما ستفعل، عندما طلب جدك المساعدة لجعل الموسيقى على حقيقتها أمام مدمنيها، اقترح الجن عليه أن يذهبوا به إلى مكان يدعى **"مركز الصوت"** حيث هو قادر على أن يسمع ضوضاء العالم كله، و بطريقة و بأخرى سيكون العالم هو أيضاً قادر على سماع أي شيء حدث من ذاك المكان؛ و هو غناء الشياطين و عزفهم الذي به يسجن المدمنين في خطر العقل على الموسيقى.

يستغرب سديم من هذا لعدم فهمه و يسأله مجدداً رغم وضوح ما يسأل عنه:

"لكن لماذا أنا؟ لماذا لا تعزف و تغني الشياطين و أنا أظل بعيداً عنكم؟ كيف هذا ما سيجعل الناس تفهم خطر الموسيقى؟ و ما النافع من مساعدة هاته الأم؟

باروق: "هي ليست مساعدة بل انتقام يا أيها المايسترو الحزين، "يوم المقاطع الموسيقية" سيظهر الأعداء أمام جدك و أمام اسمه. و سيعرفون أنه كان يريد الحق فقط، و ليس ما ادعوا أنه زاعمٌ فعله. أما عن الشياطين التي قلت لما لا تفعل هي هذا، فهي من تجعل أي مدمن موسيقى يسافر على معازف إلى أماكن ما، لكنهم لا يفعلوا هذا بطريقة تُظهر خطر الموسيقى لأن الشياطين ستحتاج مساعدة من بشر يفهم طبيعة الناس و يحدثهم في المهمة. و السحر هو السبيل لأنه الشيء الذي أنهى حياة جدك، أخطر أنواع السحر.

أغمض سديم عيناه معبراً عن انزعاجه الذي الذي جعله أعمه للحظات، لكن الجني لم يبقى ساكناً بعدما شعر بانزعاجه، فقال له بعد حركة غريبة صدرت من يده:

"ما أريد أن أصله لك أن هذا طريق من الطرق الذي ستحدد معنى من المعاني في حياتك، لا تخف من أحداث لم تقع بعد، تجاوز طبيعتك البشرية الغريبة التي تضع التراجع دفاعاً لها و ما هو في الحقيقة إلا جاسوس أكبر عدو و هو الخوف".

استجابة سديم للدعوة و الموافقة على المهمة أظهرتها دموعه الذي لم تتردد الآن عن النزول بعد ظهورها في عيناه طوال الوقت. يُرْجع الجني الصوت الخشين، المخيف و يقول:

"سألتقي بك غداً، غداً سنبدأ في أول اختبار لهذه المهمة يا سديم، **اجعل البهجة شيء تحويه أنت و تهديه لنفسك في أي وقت و في أي مكان و لا تدع أي شيء يخطفه منك فتصبح عبد يجري وراء شيء ليجد راحته**، لا تفعل هذا كما فعلت مع إليوشا لا تكن عبد هرمون و لا تكن عبد لحظة".

أجاب سديم محركاً رأسه: "لآن عندما تحدثت عن الحب عرفت معنى الوهم و عرفت المهمة حق المعرفة".

ما جعل حياة سديم مستقرة بالنسبة لميزان الحياة هي التربية التي تلقاها من زهاك، فرغم كل الأحداث التي تمثل عداوة الحياة لسديم إلا أنه لا زال على الطريق الذي رسمها زهاك له عندما كان صغير؛ الإصغاء لأي شيء خرج من أي فم، مع الاستمرار في طلب المساعدة من الناس القادرون على تقديمها.

فبعد الكلام الذي قاله الجني المتمثل أعاد سديم استحضاره بشكل كما تفعل البقرة عندما تجتر ما رُزِقت به خلال يومها. فقبل يوم من اختبار المهمة كان عشب و شعير هذا الكائن الذي يُدعى سديم الكلام عن البهجة و المهمة. فأخذ يربط هذا بما يعرفه عن الكثير من الناس الذين يربطون بهجتهم بالموسيقى، فَفَهِم ما كان يقصده الجني و فهم المهمة.

تتحرك قصة سديم بأحداث قصيرة منفصلة عن أخرى بكلام يقال له يخطف مسمعه و يعالج عقله.

إنه صباح الاختبار، حيث استقبل سديم بصيب جميل و منعش أنعش حركته و أحيا نفسه. خرج سديم من المكتبة التي أصبحت منزله في الأيام الأخيرة. لم يخرج سديم بل خرج شخص شجاع؛ شاباً قوياً، خرج شخص مطأطأ الرأس، خرج شخص يقول في نفسه:" عاش زهاك، عاش الحق، عاش العقل، تباً للخوف، تباً للتراجع، تباً للجمهور، أنا إنسان و حياتي بدأت بأحداث سببها ماضي الأسطورة زهاك؛ أفتخر لكوني هكذا، أنا إنسان لذي رسالة سيشهدها العالم، أنا إنسان سيشهد العالم قصته".

وقف سديم تحت الشجر التي نعتها له الجني و جلس يتنفس عميقاً و يتأمل براءة الدنيا في الصباح قبل قيام مُستخلفيها ثم انتظر انتظار طويل لم ينتظر شيئاً مثله من قبل.

برهة بدأ يسمع موسيقى آتية من السماء و لحظة بعد أخرى تقترب إلى أن أصبحت ضوضاء حوله بسبب ارتفاع درجة الصوت، فإذا بالجني يتكلم مخاطباً سديم: "سديم، استعد فهو يوم الاختبار. ستذهب إلى المكان الذي ستسمع فيه ضوضاء العالم، و ستعرف كم أنكم مزعجون في هذه الأرض".

يسمع سديم هذا الكلام فجأة و بسرعة جد كبيرة يبدأ يصَّعَّد في السماء إلى أن يصل إلى المستوى الأقل هواءً و يلاحظ أن هناك أشياء من حوله تحوم كأنها هي التي ترفعه. و هنا الصدمة و الضعف؛ عندما يبدأ يسمع صوت يؤلم مسمعه و يزيد من ضيق صدره و تنفسه، يحاول التحدث مع أحد لكن لا أحد يجيب، يحاول أن يرى المكان الذي فيه يوجد لكن الصوت الضخم المزعج أصبح لا يُستحمل و أغمي عليه للحظات إلى أن أعاده الجني إلى المكتبة و وضع بعض الهواء في رئتيه ثم فتح عينيه مفزوعاً.

لم يشعر سديم من قبل بهذا العياء الذي جعله غير قادر على التحدث أو النهوض من مكانه كأنه أصبح مشلولاً.

لم يتمثل الجني في هذا اليوم أمام سديم، اختبئ و ظل ينظر إلى سديم من بعيد الذي بدأ يردد دون توقف:

"إن هذه المهمة صعبة يا باروق! كيف سأعود مجدداً إلى ذاك المكان و أني قد اقتربت من الموت؟ "إن هذه المهمة صعبة يا باروق! كيف سأعود مجدداً إلى ذاك المكان و أني قد اقتربت من الموت؟..."

أجابه الجني باروق محاولاً اصطناع الأمان و الأمن في نفسه:

"لا تقلق سيكون الأمر أسهل في المرة القادمة. إنك قد أبليت بلاء حسناً أيها البشري. لم أكن أنتظر أن تصبر و تتحكم في حركتك. اطمأن، إن المهمة لن تكون في هذا الوقت من اليوم الذي صعدت فيه إلى ذاك المكان، إن يوم المهمة حيث ضوضاء العالم يكون منخفض".

إن المشاهد حيث يسأل سديم الجني و يجيبه ليطمئنه تشبه حال الرضيع الذي يبكي فيأتي شخص يحمله و يسكته فَيَنَام. و أكثر من هذا فالرضيع بعد

أن يكـبر يحتـاج إلى تربيـة و هـذا مـا يحـاول الجـني أن يفعـل، فالمهمـة تعتـبر محطة تعلم و نجاح لسـديم إذ كان قادر على تجاوز صعوباتها. فتابع يا قارئ أين وصل هذا النطـق الموسيقى و كيف ستكون النغمة التالية المنفصلة عن السابقة.

في المكتبة في نفس اليوم، الوقت يمر ببطء لكن سرعة الأحـداث تغطي ذلك البطء القـاتم، الماضي يلاحـق المسـتقبل و يرميـه بالـذكريات و الشخصـيات المتكررة، في المساء هذا ما شعر به سـديم عندما وجد كل من الجـني الـذي تمثَّل مرة أخرى، المجنون و الأم ماجنيس حوله يتحدثان بطريق تشجيعية و رائحة وجبة شهية تصدر من صندوق قرب الأم ماجنيس.

و هم يتحدثون، مرة يستسهلون المهمة و أخرى يجعلوها صعبة، بين الأقوال و التحفيزات يقاطعهم سديم و يقول:

"لا أحتاج تحفيزكم، أنا أوافق على المهمة، المشكلة هو أنني الآن غير مؤهل و مستعد كامل الاستعداد لكي تروْني بالصورة التي تسعون أن أكون فيها".

يقول المجنون ماسكا يديه بقوة:

"لا زال أسـبوعين من التـدريب؛ من الصـعود و التعلم و شرح كـل مـا أنت تحتـاج يا سـديم. لا تخـف، سـيكون جـدك فخـور، بعـد كل هـذا أنـا متأكـد أن ستعيش حياة أكبر من عالية".

لم تتـدخل الأم مـاجنيس هنـا لأن عاطفتهـا لا تصلح أن تظهـر الآن، هي فقـط أحضرت بعض الأكـل لسـديم و المجنـون كي يشـعر سـديم بشيء من دفءٍ

الوطن، الجني بصوته غير المستقر من تحدث مردداً مرة أخرى ماذا قال لسديم سابقاً:

"سديم، أنا لست بشري لكن أعرف البشريين و أعرف متى يبدأ شعور البهجة يدخل بين أصابع أطراف جسمهم حتى يصبح الجسم هو مصدر هذا الشعور. سديم تصالح مع ذاتك قبل بدء التدريب، كن مقتنعاً بما حصل لك و ما يحصل لآن، ثق بنفسك و تمسك باليقين محارباً به الشك".

بعد هذا الحديث الذي كان له تأثير على سديم و هذا ما أظهرته الطريقة التي بها ودَّع المجنون و من كان معه، بدأ يشعر بشيء من التصالح مع الذات و بدأ يرى نور الطريق الذي جعله جده. فبعد رحيلهم وكما كان يفعل بعض الأحيان، لبس ثياب جميلة جعلت مظهره مثير، ثم ذهب حيث ودَّع الشمس ضارباً معها موعداً آخر الغد، لكن قرب اللحد الذي لا مجال أمامه لمعاد أو التكلم مع سُكَّانِه، نعم جلس قرب قبر جده و هو يفكر في المهمة، في الصعوبة و في إنهاءها. جلس ناظراً إلى الاسم المكتوب على القبر؛ زهاك ألبرت و البكاء حينئذ بدأ كرحمة المطر لبلدٍ ميت، بدأ يبكي كأن جده توفي الأمس، مرت أربع سنوات تقريباً لكن الحزن الذي يحمله سديم بجانب روحه لا يزال كما بدأ".

تَوَشْوُشٌ تمتَمَ به سديم و هو لا يزال ناظراً إلى اسم جده:

"لن أسأل لماذا؟ و حتى إن سألت على ماذا سأسأل؟ هل على أول مرة عرفت فيها أنك رحلت؟ أم على الحياة التي كانت مملوءة بكل ما أصبح نتاج حاضري؟ أم، أو؟ لا يا جدي، لم يبقى لي متسع من الوقت أنظر فيه للوراء أو أفكر في فعل هذا الأمر. أصبح سديم شاباً قوي مثل ما كنت تسعى لتكوِّنه، سديم يسمع الكلام رغم أن ما أصبح يقال له مجرد صراخ من هنا و من هناك،

مهما كانت لطافة الكلام الذي يقال لي فهو أمر و ليس طلب، لكني أفعل ما أراه صواب لي و لقصتي في هذه الدنيا".

يقف سديم عن الكلام و يمسح دموعه الفائضة مبتسماً ثم عاد يتكلم إلى حجر و تراب القبر:

"أصبحوا ينادوني المايسترو الحزين و أنا أريد مايسترو الشبح؛ إن ما حاولت فعله مَجْد بالنسبة لي، فالناس أصبحوا يعيشون الوهم أكثر من بحثهم على لحقيقة. الأمس قال لي جني من أصحاب المهمة إن بعض ملامحي تشبه ملامحك، و قال ليت زهاك معنا لآن و لم يمت بسحر الأعداء. لم أجبه لكن في داخلي قلت؛ جدي لم يمت، جدي حي و ما نعيشه لآن يثبت وجوده؛ فالبشر و الجن اجتمعوا كي يفعلوا ما تريد يا جدي، إنك حي لم تمت بعد. وداعاً جدي، ليثنا دائماً نلتقي كالشمس و سكان الأرض، وداعاً جدي، لا زلت أحبك، وداعاً".

أخذ النور إلى صدره بلقائه الأخير، و عاد إلى منزله في ظلام الليل كالذئب الشجاع، فهو لآن متعطش للمهمة، مستعد ليعرف "الإنسان المقهور" معدنه.

دخل المكتبة، و انتبه لرائحة جميلة لعطر مثير و فخم، وجد شيء لم يتوقع حدوثه أبداً كالعادة؛ الفتاة التي أنقذته من الموت، نعم الجنية إليوشا و هي متمثلة في ذاك الجسد البشري مرة أخرى.

رغم موافقة سديم على المهمة و تصالح مع ذاته إلا أنه لا يزال يُفْزع عندما يجد نفسه متخالطاً مع الجني باروق أو يفكر أن هناك شياطين أو جن حوله في كل مكان.

دخل سديم و تبادل مع الجنية المتمثلة نظرات ليس كما فعلوا أول مرة في بيت جده، لكن تسلط الجنية أو شجعتها جعلتها تستبق الكلام بصوت قبيح قائلة:

"سديم ألم تذكرني؟ فأنا من ساعدك ذاك اليوم لم أتغير، لم يتغير الجسد الذي فيه كنت؟ ألم تتذكر أي شيء؟".

بصوت يوحي أن المتحدث خائف قال سديم خافضاً رأسه آخذاً بعض الهواء إلى رئتيه بشهيق عميق:

"بلى أتذكر، و من ينسى من ساعده إلى أن يصل إلى هذه المرحلة المثيرة من حياته، شكراً لك مرة أخرى فأنا ممتن لما فعلتي و لما يفعله أباك لآن لأجل جدي، شكراً لكم جميعاً".

أخطأ سديم عندما شكر جميع من يساعدونه ففزع حتى سقط في مكانه بعد أن قال شكراً لكم جميعاً فقد أجابه معشر من الجن قائلين في نفس الوقت: "لا شكر على واجب سديم"، صوت من داخل المكتبة و أصوات خارجها.

جعله هذا الأمر يعلم أن الأمر ليس بتلك السهولة التي يعتقدها و أن فعلاً هناك في كل حين مجموعة من الكائنات التي تراقبه. بعد فزعه ضحكت إليوشا على ردة فعله بصوت يشبه الذي تملكه المعزة و قالت:

"لا تخاف فالكل هنا موجود لأن غداً سيبدأ التدريب فالكل هنا أتٍ كي يساندوا المايسترو الحزين، أنا هنا لهذا السبب".

بين التردد، الخوف و الشجاعة، التصالح مع الذات وجد سديم نفسه، لم يعرف ماذا يفعل بعد ما حدث، جلس فقط ينظر لحظة إلى الجنية التي تعتبر "بابا ياجا"[12] هذه القصة و يعود بعينيه إلى الأرض لحظة أخرى.

كان العطر المنتشر في المكتبة كقوة تسبح في الهواء حاملةً بعض المعاني أو العناوين، الجنية تتحرك بحركات غريبة و سديم حاذراً منها، منفذ واحد الذي وجد كي يبتعد عن هذا الجو المرتبك هو سؤاله عن المجنون و الأم ماجنيس إذ كانوا هنا. بادر بالكلام بصوت تحريك حنجرته المرتجفة و قال: "هل جميع من كانوا هنا رحلوا أم ماذا؟

أجابته الجنية و هي تقترب منه:

"نعم، كل من كان هناك قد رحل، لا أعرف كيف لك أن تسأل عنهم و أنا هنا آتية من مكان بعيد راغبة في التحدث معك. ألم نعش ساعات جميلة من قبل؟ ألم أقل لك إنني أحبك؟ ألم...

تذكر سديم وعد باروق له أن لا مكروه من الجن سيصيبه فتحول من الخائف المتردد إلى الغاضب الصارخ تحول سديم بعد سماع هذه العبارات من الجنية مُفكراً ما تعلم من المجنون و من الجني باروق عن الوهم و خطورته. و كالعادة يقاطع حديث إليوشا قائلاً بصوت مرتفع:

---

12 **بابا ياجا:** هي كائنٌ في الفُلكلور السُلافي تُحلِّق بابا ياجا على هاونٍ عملاقٍ وتخطف (وربما تأكل) الأطفال الصغار، وتعيش في كوخ يقف على أرجل دجاج. وفي معظم الحكايات السُلافية، تُصوّر بابا ياجا على أنها خصم؛ ومع ذلك، فمن المعروف في القصص الأسطورية الأخرى أن بعض الشخصيات تبحث عنها بسبب حكمتها، وهي في مناسباتٍ نادرةٍ معروفةٌ بأنها تُقدم التوجيه للأرواح الضائعة

"كل ما حدث ذاك اليوم مجرد وهم، لا أبالي إذ كنت من الجن أو من البشر، كلمات قد خرجت من فمك و أفعال صدرت منك أعلم أنها كانت في سبيل هذه المهمة فقط، لا تشغلي بالك بأشياء وهمية، وداعاً".

خرج المايسترو الحزين مستشعراً قوة الكلام الذي قال أمام الجنية إليوشا و أهلها جميعاً، فذهب إلى مقهى قرب المكتبة كانت منزل بعض الكتّاب و القرّاء.

جلس في ركن لم يكن فيه صوت الكلام مسموع بارتفاع و تأمل الناس من حوله حيث كان مجموعة منهم يرددون كلمات مقطع موسيقي و عرف سديم أنهم من الضحايا الذي ربما سيعرفون أنهم بعيدون عن الحياة الحقيقية بعداً كبيراً. يراهم و يقول في داخله ليثني انهض و أقول بصوت مرتفع أمامهم؛ الإنسان المقهور الذي يهرب إلى الموسيقى لتعطيه المستقبل غير القادر على الوصول إليه أو الرجوع إلى الماضي ليلبس بدلة الضحية لا حياة له، لا مكان يستحق اللجوء إليه أو ساعات يستحق استهلاكها. لم يُحب أن يبقى في المقهى و هو ينظر إلى ذاك المنظر فخرج و جلس بعيداً عن الشارع و طريق مرور الناس.

التفكير في المهمة ما أصبح يشغل باله إلى جانب الحياة ما بعدها، أصبح يخاف لحظة و يتشجع لحظات، الوقت يمر و المهمة تقترب. بقي جالساً حتى جاءه باروق متحدثاً غير متمثلاً يقول: "غداً في الصباح الباكر قبل قيام الناس في نفس المكان أي قرب الشجرة سنلتقي، ارتدي شيئاً ثقيلاً و اشرب الماء كثيرا".

سمع ما قيل له و ما كان جوابه إلا أن قام متجهاً إلى المكتبة لينام و عين عقله تتصور الأسابيع اللاحقة بين طلوع السماء و النزول.

معركة العقول

بدأ أسبوعي التدريب و البشر ينتظرون و الجن ترتقب سديم الذي ما انتهى الأسبوع الأول حتى أصبح قادر على المهمة التي تهدف إلى؛ جعل السحر قادر على التحكم في حركة تحرك الأجسام في الهواء، الماء وعلى الحجر ليجعلها منظمة و هو الشيء الذي سيسمح لتوحيد موجة الصوت و ذلك بالاستناد على نغمة معينة واحدة (مقطع موسيقي) و هذا ما يجعل هذا المكان مصدر للصوت يسمعه الجميع، و بوظيفة السحر فقط مدمني الموسيقى من سيتعرضون لهذا الصوت درساً من المجنون و ثاراً لزهاك.

عرف في هذا التدريب أن الموسيقى هي لغة استحواذ الشخص على ذاته، عرف أن الموسيقى لا تحتاج إلى حاكم مستبد لكي تُستعمل في إخضاع العقول. تمكن من فهم عقل مدمنين الموسيقى باعتبارها صوت يخضع لحركة الرنين؛ المشاعر. عرف خطر المهمة و عواقب السحر إذ انقلب على مستخدمه.

في جزء من هذا التدريب، تعلم كيف يتحدث للناس عندما يكون هو مايسترو الفريق، و ماذا يقول عندما تكون بيده القدرة على جعل الناس اسمه ما اعتادت عليه لكن بطريقة لم تعشها من قبل. علمه شيطان اسمه "قزج" كيف يطرق بالصوت على المدمنين، تدرب أيضاً على القتال ليرتقي بمعنويات تسمح له بأن يكون ثابتاً لا متراجعاً، و علم المجنون اللغة التي سيستعمل خلال المهمة.

كان التدريب جد قاسي من الجني باروق الذي زعم على جعله هكذا كي لا يجد سديم أي صعوبة أثناء المهمة. كل يوم صباح يرى الشياطين بعدما يصعد به الجني إلى المكان. تدريبات جعلته يفكر في بعض الأحيان أن يستسلم، لكن فكرة الانتهاء من كل هذا و الثأر لموت الجد جعلته يلتزم و يكمل سواء و هو في مزاج جيد أو العكس.

يتطـور خطـوة بخطـوة و الـوقت و الـوقت مسـتمر بين إنـارة الأيـام و إطفاءهـا، داخـل الـوقت يجـري سـديم و من معـه بين الخـوف و الشـجاعة دون أي مجـال للرجوع.

لا يتراجع و يفكر في المستقبل، فقد استقبله المجنون في المكتبة أيام ما قبل المهمـة حيث عـاد بـه إلى أيـام جـده حين كان يسـتعد للمهمـة قبـل أن يزعـزع السحر مخطط حياته و يقتله.

في اليوم ما قبل المهمة دعا "المجنون" سديم إلى المكتبة و لبىَّ سديم الدعوة فرحـاً حيث ذهب و بسرور اسـتُقبل، إنـه دخـول للمكتبـة ليس كـأي دخـول سابق. فقد كانت مزينة بطريقة تفوق إبداع البشر، وجد مجموعة من الناس منهم من عـرف و منهم من ألقى التحية فقـط. بقربه وقـف إبريز و أخـذ الكلمة جاعلاً الجميع ينصتون له قائلاً:

"الحمد لله الذي جعلنا نصل إلى يوم كهذا، بقربي لآن حفيد صديقي و أخي زهاك، كل من هنا يعرف زهاك و ها هـو حفيده الذي أراد أن يكمل ما حـاول فعله. سـديم، كل من هم حاضرون لآن لأجـل المشـعل الذي أخـذت و الدعم لهـذا الأمـر عنـه لا يكفُّون، لن أطيل الحـديث فأنـا لـذي شيء أعطيه لـك؛ إنـه أحد أقمصة زهاك، كان من وصاياه أن يُعطى لك و هذا اليوم خير وقتٍ لذلك، خُذِ القميص و رفرف إلى السماء رعاك الله و حفظك".

تصفيقات و هتف من الحاضرين بعد الكلام الذي قاله المجنون، أخذ سديم القميص و أطـال النظـر إليـه لثـواني ثم وضـعه في حقيبتـه و في عينـاه النصر و القـوة. احتسى بعض المشروبات مـع بعض الأشـخاص من كانوا يزورونـه منـذ صغره، و بين اللحظة و الأخرى أخذوا يتذكروا أيام سديم الصغير مع جده و

يفتخرون بسديم الشاب الذي جعلهم يعتزون بالطريق الوعر الذي سُلك من أجل زهاك. كان أغلبهم بسن المجنون، يشجعون سديم و ينتظرون المهمة.

سأله أحدهم عن المستقبل سديم فقال:"اسمح لي أن أسألك يا مايسترو، ماذا عن ما بعد المهمة؟ هل لك طريق تسلكه أو هدف تجري من ورائه؟ أجابه سديم رافعاً رأسه مُتكلمً ببطء:

"طبعاً، فقد حرصتم على تذكُّر كل شيء إلا حلمي و أنا صغير. سأسافر و سأولد من جديد، حياة جديدة، حاضر جديد دون ماضي ثقيل".

خرج سديم و ترك الرجال مجتمعون بعد توديعهم، فأخذوا يتحدثون عنه قائلاً أحدهم: زهاك نصر هذا الشاب و في نفس الوقت قد ظلمه، لعل هذه المهمة تُشعره أنه طبيب، لأنه سيشفي مرضى كثيرون.

إنها اللحظات الأخير، التي تفصل سديم بمعركة العقل ضد المشاعر، لحظات أولى كانت في المكتبة مع المجنون أما بعدما خرج جعل أخرى وسط أجمة بعيداً على المدينة و يُشهِد كل شجرة أنه سديم ألبرت مايسترو فرقة السحر، سيلقي قطعته الفنية أمام مدمنين الموسيقى، و أنه أول مايسترو يعترف بوهم الموسيقى و أنه أول مايسترو سيثور على الاستماع لها.

ظل يمشي و عقله في السماء مع الجني باروق و كيف ستمر أحداث هذه المهمة التي ستحتاج أكثر من أسبوع لإكمالها، أكثر من أسبوع و سديم بين السماء ينظم الفرقة و في الأرض مختبئ من بطش المدمنين.

عاد في آخر الليل هذه المرة إلى البيت ليقوم بتوديعه، كالعادة دخل من المكان السري، و بهدوءٍ أخذ يمشي بين حيطان البيت ناظراً إلى الغرف بالتوازي مع الذاكرة التي لم تبخل بإعطائه ما تحوي من لحظات الماضي؛

الطفولة و ما بعدها، الفرح و البكاء...استلقى في مرقد جده، تمنى الموت عوض أن لا تنجح مهمته، أغمض عينيه و سقر.

في المكتبة ظلَّ المجنون مع رفاقه يتحدثون بمواضيع تُعتبر عناوين كل مرة يلتقون فيها، يحتسون المشروبات و بين اللحظة و الأخرى يجعل أحدهم الآخرون يضحكون بسبب نكتة من النكت الذي رغم أنها قديمة إلا أن هناك من يُحسن إعادة قولها كل مرة.

ظل الحال هكذا إلى الوقت ما بعد الفجر، و ما جعل المجنون و أصدقائه ينهضوا من مكانهم إلا فرقعة سُمعت من السماء، نعم إنها **المهمة**، إنه سديم قد بدأ، إنه **يوم** اعتراف المدمنين أنهم يستهلكون ما سيهلكهم، يوم اعتراف الشمعة بأنها كانت دائماً تحمل فوق رأسها خيط سبَّبَ يوماً في هلكها.

نهضوا من مكانهم و خرجوا إلى ساحةٍ قرب المكتبة ناظرون إلى السماء و هم صامتون، و بدهشة تفاعلوا مع ما رأوا في السماء مكتوب قبل لحظات شروق الشمس؛ **"زهاك ألبرت يحييكم جميعاً و ينادي محبي الموسيقى خصيصاً".**

لم تبقى هذه الكتابة في السماء إلا للحظات، ثم هطل مطرٌ غزير سبَّبه الغاز الذي انتشر. و بعد شروق الشمس و تنفس الصباح، بدأ البعض ممن رأوا ما كان في السماء تداول الكلام، حيث قيل أن منبوذ المجتمع لم يمت و قد ظهر كي يثأر من أعدائه، قيل أن حفيده من يريد أن يفعل ذلك، و قيل أن الخبر مجرد خرافة أو منظر من خيال السكّرين الذي غالباً ما يكون وقت ما بعد الفجر هو توقيت العودة إلى المنزل. كثُر الكلام و لم تلاحظ فئة ممن سمعوا الكلام أي شيء يحدث مرة أخرى بعد أن عزموا على مراقبة السماء. من يعرفون سر المهمة يشفقون على جاهلِها، و بالقيل و القال انتهى اليوم و لم يظهر سديم لأي أحد من الناس.

أصيب مجموعة من أفراد الأعداء بالشك حول إذ كان فعلاً زهاك من فعل ذلك أو حفيده لأنهم يعرفون بأمر المهمة و طوال الوقت جعلوا الأمر مكتوم لأنها مصدر و نقطة الهلاك بالنسبة لشبحهم المقدس، فأخذوا يبحثون عن سديم و المجنون وكل من يظنون أنه له علاقة بالأمر، لكن لم يجدوا إلا أجوبة سواء من المجنون أو من غيره جعلت الشك يختفي، لكن ليس حول المهمة؛ فالشك عند هذا النوع من الناس القاهرو أنفسِهم تطفيه الموسيقى بوهمها، و هذا ما وقع، فقط استمروا في الاستماع و لم يحركوا ساكناً.

في الجهة الأخرى؛ أي مساندين المهمة كانوا منشغلين بالاستعداد إلى اليوم اللاحق من المهمة، يوم سيشهد المجتمع حدث دموي بين أفراده. فقد حفروا أنفاق و اعتزلوا الناس و ما يفعلون بالطريقة الأمثل و التي لم تجعل أي شخص يستشعر اعتزالهم هذا.

في نفس الوقت من صباح اليوم الثاني مع استمرار غياب سديم و انعدام أي أخبار عنه، كُتب في السماء **"الماضي، ملجأ الهروب".** الشيء الجديد الذي وقع في هذا اليوم الثاني أن العبارة التي كُتبت بَقِيت و لم تُزل إلا بسبب أشعة الشمس التي جعلتها غير واضحة لكنها رُصدت من الكثير من الناس. و رافق العبارة مقطع موسيقي تكرر طوال الصباح، مقطع لشخص يغني فيه عن أحداث حصلت في الماضي جعلته كئيب في الحاضر، بعبارات القهر و الهروب مع إعلاء الذات.

بعدما أُطلقت الموسيقى من السماء، أصبح حال مدمني الموسيقى أشبه بمنظر مجموعة من النمل على صخرة بحركة غير منتظمة يتحركون بعد تعرضهم لتأثير السحر الذي جعلهم بعضهم يستمعون للمقطع الموسيقي، فقد انقسم المجتمع إلى قسمين، قسم المدمنين منهم أخذ يسأل عن المقطع

الموسيقي الذي يُسمع و ما مصدره و من وضعه، بالمقابل لا إجابة من قبل الناس غير المدمنين على الموسيقى و هو القسم الأخر، فظن القسم الأول أنهم أصبحوا حمقى يسمعون أصوات في عقولهم و هذا ما يجعلهم يجنون.

بعد مرور وقت قصير إزاء شيء فعله سديم من السماء، القسم المدمن انقطعت حركتهم و كل من كان له ماضي و ذكريات حزينة تخيلها أمامه و هو يسمع المقطع الموسيقي حيث خُدِّروا و لم يكن لهم أي تفاعل مع الحدث إلى أن توقفت الموسيقى بساعات.

عندما توقفت الموسيقى التقى القسمين و اكتشفوا أن قسم كانوا تحت تأثير شيئاً ما، بينما هناك ناس لم يشعروا بأي شيء.

اجتمع أعداء سديم بعض انقطاع صوت الموسيقى، فقال أحدهم أنه عاش أثناء هذا التأثير في أشياء من الماضي كان كل يوم يتذكرها و يلجأ إلى معزوفة موسيقية لكي يحاول النسيان. أما البعض قالوا أن ماضيهم بأكمله مر أمام أعينهم و تألموا مثل ما تألموا بالأحداث التي جعلتهم يعانون في الماضي. نفر أحدهم قائلاً أن الموسيقى هي سبب كل هذا و هي من جعلت الكل يعيش و يقهر نفسه بالهروب إلى الماضي بأحسن و أجمل وسيلة و هي المعازف الموسيقية.

جعل هذا الكلام الذي قاله أحد من الشبان إحداث صراع و تعارك بين جميع ضحايا الماضي و القهر الذاتي. فتشاحن و تناحر بعضهم البعض إلى أن أُطلق مرة أخرى نفس المقطع الموسيقي فعادوا إلى حال إدمان الاستماع للصوت المرتب؛ في الشوارع مدمنين تسأل كالحمقى و آخرون يبكون بسبب ما يعيش حاضرهم في الماضي، و بعضها مسرور بالأحداث التي يراها من الماضي لأن حاضره غير لائق لأي كائن أن يعيشه.

إن السحر الذي يستعمله سديم و من معه جد فعَّال إلى حد لآن، فيجعل المدمن يعرف أن الموسيقى هي السبب في كل ما يحصل له عندما وجد نفسه أنه يعيش على الماضي لكن خوفه ألا يحصل على ملجأ أو مكان سهل و جميل كالموسيقى يجعله يرد اللوم على نفسه و العالم الخارجي.

هكذا كان مصير من سمهًّا لغة الأرواح في أول خطوة من المهمة، استطاع السحر أن يكون المادة السامَّة و عدو أرواح الأعداء.

هذه الطلقة الموسيقية الأخيرة كما ذُكِر من قبل جعلت البعض يعيش السعادة بما تحمله ذاكرته من أحداث يتخيلها في حاضره و هذا أكبر ملجأ لمن يقهر نفس بالهروب إلى الماضي ليخفف من ألم الحاضر الذي لم يستطيع مواجهته. المشكل و الألم الذي يشعر به كل واحد منهم هو أنه عرف الحقيقة و عرف أنه خسر كثيراً من الوقت لكنه لا زال يأبى اتخاذ الطريق الصحيح.

بعد هذه الطلقة، صرخة من سديم تَعتلي صوت أهوال المدمنين؛ فيعلموا بعدها أنهم في قبضته و يعلم غير المقدسين للموسيقى أن "ألبرت سديم" عاد للثأر لجده و أن جده ما كان يريد إلا الحق.

صرخ مجدداً: "هذا حال من يجعل حدوده أمام أنفه، هذا حال من يفكر بالماضي في حاضره، من يقدس الموسيقى جاعلها ملجأه و عذره الذي لا ينتهي، إنني سديم ألبرت و أنا من سيطردك من ماضيك و يبقى لك سوى خيارين؛ إما أن تواجه المستقبل و الحاضر أو تموت منتحراً لعدم قدرتك على مواجهته".

في اليوم الموالي، بعدما سمع الكل ما قيل من سماء قريب من المايسترو الذي لم يصبح حـزين، أُثِير غضـبهم و هم يفكـروا أن حفيـد أكـبر منبـوذ ميت في المجتمـع يريـد أن يبعـدهم على شيء مقـدس. فنهض كـل واحـد منهم بغيـة وجود سديم و قتله كي لا يستمر سحره في تعذيبهم. فكانت هذه هي المناسبة التي بها تُرمى تعويذة أخرى بمقطع موسيقي آخر و خطاب لسديم آخر.

المقطع الموسيقي التالي كان سند و دعم لأعداء سديم، فهو مقطع حماسي فيه المغني يحفز و يشجع المستمع و هذا ما زادهم قـوة و شحن في بحثهم عن سـديم. فأخـذوا يسـتمعون من السـماء للصـوت الصـاخب و يضـحكون و يسـتهزئون بسـحر سـديم على أنـه أخطـأ في هـذا المقطـع لأنـه لا يعـذبهم و لا يعيـد بهم إلى الماضي. لكن سرعان مـا ازدادت قـوتهم و تحفـيزهم على المضي يتحدث سديم من قَيْدومٍ مرتفعٍ قائلاً: **"الشجاعة، القوة، التحفيز والرغبة".** فما زادهم إلا ضحك و استهزاء مرة أخرى قائلين أن كل من أخذِ الشجاعة و القـوة و الرغبة هي أشياء حسنة من الموسيقى. و الجـواب من سـديم طبعـاً:" **الشـجاعة، القـوة و الرغبـة أشـياء تـزول بسرعة إذ لم تـأتي من معـدنها"** و انقطع المقطع الموسيقي.

لم يفهمـوا من طبيعـة الحـال فاسـتمروا في البحث متعـاونين مـع السـحارة لكي يقـاوموا سـديم، فكانت حـالتهم أشـبه بانصـهار الشـمع، فقـد انخفضـت وتـيرة تحـركهم و بـالموازاة غـاب سـديم لأربعـة أيام إلى أن توقفـوا على البحث عنـه و عن محاولة التصدي له مُعتقدين أنه رحل.

من طبيعـة الحـال أنـه كـان هنـاك من فهم مـا يريـد أن يوصـله سـديم و قـرر الابتعـاد عن الموسـيقى و مواجهـة مدمنيها في الأرض مسـاعدين المايسـترو على المهمـة. فهِمت هـذه الفئـة من النـاس أن الشـجاعة و التحفـيز المـأخوذين من

الموسيقى مجرد وهم يجعل المرء يقبل المستقبل بالعدم بكلمات و إيقاعات فقط و هذا هراء و ظلم.

في اليوم الرابع سديم عاد مرة أخرى و فعل مثل ما فعل آخر مرة؛ المقطع المحفز و الداعم، قاموا من جديد و تحركوا لأنهم يقدسون الموسيقى و رغم حالهم هذا هم غير قادرين على الاعتراف، يستمرون كالفئران و النهوض على أساس أنهم قادرون على فعل شيء ما، لكن ينتهي أمرهم أن يستوعبوا انطفاء وهم النور عليهم الذي كانوا فقط يتصورون وجوده.

إذ سمع أحدهم ما يقولون يحسب أن شجاعتهم قادرين بها على دكِّ الجبال لكن في الحقيقة هم غير قادرين و غير راغبين حتى الذهاب إلى قرب تلك الجبال.

كانت مجموعة من بعض المدمنين أثناء تعرض مسمعهم لهذا المقطع الموسيقي الأخير لا هم يتشجَّعون بعد سماع الموسيقى و لا هم يعيشون الحزن معها، فقد كانوا **يختبئون** بين ألحانه و يبررون هم الآخرون سبب ضعفهم و خوفهم.

في هذه المرة الأخيرة التي عاد فيها سديم وبين الإطلاق الأول و الثاني للمقطع الموسيقي تحدث لجمهوره غير الوفي، قال ما لم يستطع أحد منهم الأخذ به، بعد صوت رُصد من سماء قريب يشبه صوت الحيتان من أعماق البحار تكلم بطريقة توحي أن المنظر الذي يتسبب فيه جعله يشفق على المدمنين لذلك قال:**"إن ما تعجزون على مواجهته غير صعب بتلك الدرجة التي ترونه، يعيش أي إنسان ساعياً وراء الوصول إلى استعاب ما هو الحقيقي التشبث به، و ما هو الوهمي اجتنابه. و خلال هذا السعي يمكن سماح حدوث بعض الشقوق على الجدران كي يُسمح للضوء أن يدخل. فاعتبرني و كلامي و ما**

أفعله بك شقق، و اسمح للنور معانقة ذاتك الظالمة المظلمة، كي لا تبقى متخلف أيها الإنسان".

انتهى سديم من الكلام و بعد ساعات جعلته الذاكرة يسترجع شيئاً من الماضي يشبه ما حدث عندما تكلم؛ الأمر يشبه حاله عندما كان يكلم حطان منزل جده عن رأيه في مجموعة من الأشياء، فتكون ردة فعل ذاك الحائط مثل ردة فعل المدمنين بعد الكلام الذي قاله سديم.

تغـــافلوا عن كلام المايســـترو الحفيــد كمـــا يتغـــافلون عن أنفســـهم و عن شخصـياتهم، إن الموسـيقى تُعَلم التغافـل و التشـتيت عن مـا يهم الإنسـان و تجعل عقله و قلب طعم لسنارة صائد يُدعى"الفنان" الذي يلوح بسنارته في بحار مواضيع المال، الحب، القهر، الماضي و الأنا المنتفخ، كل هذا يُخلط و يراه المستمع عشاء ليلة خسيسة و هو دنيء الشخصية أمام ساعاتها.

جعلت الموسيقى الكثير من المدمنين من ضحايا سديم يتغافلون عن الحياة مُعتبرين الموسيقى ملجأ من لا مكان و لا أصدقاء له على اليابسة.

هي الفـترة الحزينـة من المهمـة حيث رأت العين في السـماء **"التغافـل عن الذات"**، و سُمِعت من السماء الموسيقى حينئذ من له حبيبة أو كانت له فكَّر فيهـا، من هـو فقـير بليـد لا قيمـة لـه في الحيـاة فكـر في المـال وسـيلة، من كان ضعيف الشخصية غير قادر على مواجهة الحياة وجد الموسيقى أنيساً، من كان عبد ألأنا اعتبر أنه يستلهم منه القوة فدفعه إلى جنون العظمة.

الكثير من الأشكال و المشاكل المتجاهل عنها أظهرها سديم في هذه المرحلة. جاء مرة أخرى فتغافلوا عن المرة الأولى فقد غاب عقلهم بشكل تام، فظهر المايسترو من مصدر الصوت الذي يسيطر على حركة الأشياء هناك بصورة واضحة وفَّرها الشياطين له حيث قال للمستمع و هو في أخيب الأحوال:**"أنا هنا لا هادي لكم أو موجهكم، أنا هنا أستعمل السحر لتروا ما فعلتم و ما فعل أباؤكم بجدي زهاك ألبرت. تقدسون ما هو خسيس و تبتعدون عن المفيد لحضراتكم، تباً لكم"**

لا جــواب و لا اســتجابة من الأغلبيــة، البعض لا يــزال يبحث عن الســحر لمقاومة مايسترو السماء، آخرون يعيشون في ماضيهم داخل بيوتهم، آخرون

كالفئران يدورون و آخرون فهموا و هدوا أنفسهم لأنهم كانوا ممن يعتني بحياتهم رغم التقديس الكبير للموسيقى في مجتمعه.

جعل الأمر الأخير سديم يعود بغضب فيما تبقى من المهمة كما بدأها، هذه المرة صَحَت السماء ب**"العجز المتعلم"**؛ يُصاب الكائن بالعجز ويستسلم أمام محفز مزعج أو مؤلم دون محاولة التخلص منه.

كل يومين أو يوم يعرف المدمنون شيء عن الموسيقى، في هذا اليوم عرفوا أنها تعلِّم البقاء وراء و بين قضبان الحديد الذي بها سجن المستمع نفسه. إن المواضيع التي تنبني عليها الموسيقى سوى أن تصور الجمال على أساس هي من تصنعه و أن المرء قادر على الوصول له أو تسجنك وراء أوهام تجعلك تخشى الكثير من الأشياء دون المحاولة في زحزحتها.

كيف للإنسان أن يضع كل من اللحن، الانسجام و الإيقاع في شيء يعتبره غذاء الروح و بدونه ليس هناك تقدم، دفاع و راحة نفسية؟

يعيش بعض المستمعين على هذا الحال، فقط إذ لم يكن قادر على أن يقف أمام شيء مؤلم أو صعب يجري وراء الموسيقى و يؤنسه الرنين و هكذا دواليك إلى أن تعلمه ما يسمى **العجز المتعلم**.

هذا ما أراد سديم أن يوصله و يصرخ به أمام ضحاياه بعدما صحا من السماء بذلك المفهوم. كل مرة يأتي بشيء يصرخ به إلا أن هناك من يتعلم و يخرج من قافلة المتابعين، و هناك أيضاً من لا يفهموا في هذه المرة الأخير فأجابوا بأن الموسيقى تنفع ولا تضُر. فصرخ المايسترو بالعجز المتعلم فما زاد المدمنين إلا إقبالهم على العجز مرة أخرى.

هذا المقطع الأخير الذي يحمل عنوان العجز المتعلم ليست الموسيقى من تجعل يعمل بل ردة فعله بعدما قهرته الحياة. فهناك من قال بعد هذا المقطع أنه لن يتمكن من الابتعاد عن الموسيقى رغم أنه لم يحاول لأنه عاجز على التعلم؛ أي أن من كان يحميه في الماضي و كان جُنده (الموسيقى) أصبح عدو لآن، زد على ذلك أنه مقدس، لكن لا مبرر لمن يجرم.

أصبح المستمع عاجز رغم أن الموسيقى تعطيه التحفيز، أصبح عبد تحت سيد لا يهتم بحاله فهذا ما زاد سديم الرغبة في إلقاء معارف جديدة بعد غيابه عن الضحايا ليومين، فعاد ليلقي رفقة فرقته الشيطانية المعزوفة التي جعلت أباه يقع في حب أمه، نعم إنها معزوفة **"الحياة فرصة و الموسيقى استغلاله"** حيث من استغلته الموسيقى رقص على دماء إيقاعها.

على إيقاع هذا المقطع الموسيقي تنتهي المهمة و يبدأ اليقين بإزاحة الشك و الباطل بين أفراد المجتمع. فسديم تسلط على المجتمع بالخير لكن أفراده فتنوا أنفسهم باعتقادهم الشر، فأصبحت حرب أهلية بين من ما زال متشبث بالموسيقى كشيء مقدس و بين من عرف أنها الشيء الجميل، سهلُ الاستهلاك الذي يُهْلك العقل و يفسد الروح و الجسد.

بعد المهمة بأكثر من أسبوع استمرت الحرب الأهلية جاعلتاً الشيء المقدس غير مرغوب في التقرب منه أو الاعتراف بتقديسه. انتقم سديم بما فعله، و ما فعله جعل له قيمة في المجتمع بشكل يصعب فهم كيفية حدوثه.

إنها حرب بين من يدعي للابتعاد عن الصوت المرتب و من يدعي لإعادة ترتيبه داخل الروح. نعم فقد انتقم زهاك ألبرت و زعزع أكبر شيئ لم يقدر شخص أو يتجرأ على التكلم بالسوء عنه. لآن، حرب قائمة حول كل هذا.

فقد تكونت جماعات منفصلة، بينهم جماعة جعلت لسديم مُسْتقر بعيداً عن الأعداء بعدما عاد من المهمة. أبى سديم هذا الاستقبال لأنه كان يريد المغادرة فور الانتهاء، لكن الوضع الذي وجد أنه أحدثه لم يسمح له بذلك. فظل هناك بينهم راوياً كل يوم عن المهمة و ما كان يحصل في السماء؛ حيث عقد صفقة مع الجني باروق تحمل الرغبة في عدم التقائه مع الجن مرة أخرى مقابل الابتعاد الكلي عن الموضوع مهما حصل.

يمر الوقت بين هدوء و اضطراب الوضع، تارة يفكر سديم في الخروج و تارة أخرى يفكر في الاستقرار في مدينته الأم. و بينما كان الوضع هكذا، التقى سديم بالمجنون حيث كان آخر لقاء للشاب و صديق جده الوفي.

التقى سديم بالمجنون في المكتبة التي تضررت بأحداث الحرب الأهلية لكنها لا تزال مكان يرحب بسديم في أي وقت وافيتاً وعد المجنون كما وعد. كانت المكتبة ذاك الوقت داخل السكون عندما كان ينتظر صاحب المكتبة المايسترو الحزين و هو جالس على الكرسي الذي كان مقعده الدائم و هو في المكتبة، ينتظر المجنون الذي بدا يظهر عليه عياء و عجز السن.

دخل سديم و ابتسم الصمت بعدما عرف أن لا كلام يكفي لمثل هذه اللقاءات. حاول سديم اصطناع بعد الدفء في هذا الجو البارد و المظلم،

فقال رافعاً صوته:"نعم قد فعلتها، فزت بالمعركة الصعبة، معركة الوهم ضد العقل، أعي أن التخلف و الشهوة دائماً ما تقمع العقل لكن على الأقل حلم الجد تحقق".

أجاب المجنون و هو الآخر يضحك ضارباً رجله اليمنى باليد الموازية لها و الدمع في عينيه يريد معانقة سديم، قال:

"نعم نجحت يا بني، لا أعرف إذ تمكن العقل من طرد الشبح لكن الهدف الأسمى تحقق و هذا ما كنا نريد. لا أعرف ماذا أقول لك و أنا أعرف أن هذه اللحظة من الممكن أن تكون الأخير في لقاءنا الذي دام سنين، منذ أن كنت صغير إلى لآن، لا أعرف بماذا أعبر و كيف".

بعد الكلام الذي وجهه المجنون لحفيد صديقه سكتوا،-سقروا بطريقة كأنهم أول مرة يعرفون ما الصمت و أخذوا يتذوقون قوته. رائحة القهوة و بعض الفطائر اللذيذة من جعلت هذا الدور الشبه مسرحي يتوقف عندما عرف سديم أن الأم ماجنيس هي الأخرى ستشارك في هذا المشهد الدرامي، أتت و معها الأكل كالعادة، أتت عاطفتها و الدموع معها كالعادة؛ تعانق سديم و تبدأ في الكلام محاولتاً التعبير و كبح الدموع لكنها تُتمتم فقط و ما يُسمع منها إلا خليط بين الكلام، شهيق و همس.

سديم على اليمين قرب باب المكتبة، الأم ماجنيس و المجنون على يسار قرب رُفُوفِهَا. من الجهة اليمنى يقال:

"إني مغادر لا محال، و قبل أن أرحل أريد أن أعترف، أن ما كنت أعيشه بدون مهمة كان دون معنى. المهمة جعلت لي قيمة، كنت لا أشعر بها خصوصاً عندما كنت بين مجموعة من الناس الذين جعلتهم فرقتي الموسيقية أن يعرفوا ما الموسيقى".

رائحة القهوة و تلك الفطائر بدأت تزول، وشوشة مستمرة من الأم ماجنيس، المجنـون بـذا واقفـاً يسـتمع بحمـاس كأنـه جنـدي في أول سـنوات خدمتـه العسكرية:

"إنني مغادر و لا أعرف إلى أين و لم أخطط لوجهتي، سأولد من جديد حيث سأستيقظ يوماً ما في مكان لا أعرفه قرب ناس لا أعرفها. هذا لا يعني أنني لن أكون وفياً لمن كانوا أوفوا بالوعد كما أراده جدي، أنا لآن كالجندي الذي أنهى خدمته العسكرية لكن وفاءه لبلاده سيبقى إلى حد موته. سيتغير كل شيء إلا طبيعة ذاكرتي التي ستظل تصورك لي أيتها الحنونة و أيها الأب و الصديق، عرفت لآن ماذا كنت تقصد عندما كنت تصرخ ب "من لم يتحمل ذل التعليم ساعة، بقي في ذل الجهل إلى الأبد"، وداعا عائلتي".

خرج سديم فور ما انتهى من الكلام، و بخروجه هذا بدأ يعرف ماذا تفعله الدنيا بحياته، حيث بدأ يرى نور الصورة الأخرى من حياته التي كان يجهلها، عرف المعنى من كونه كائن مستمر في الحياة، عرف أن النهاية سبب البداية. عرف أكثر شيء جعله يبتسم و هو في الطريق لجمع أمتعته و هي إرادة الجد أن يبعد سديم من المكان الذي تسود فيه شخصية الضحية، القهر و التخلف. لذلك جعل بداية حياة سديم نهاية حياته هو و بالمهمة عرف ذاك القهر الذي يمارسه الفرد على نفسه و عرف أن لا قيمة لمن يظل يبكي دون حركة.

عاد حيث يضع أمتعته بين الجماعة التي نصرته، وجد أصدقائه الجدد ينتظرون قدومه الأخير لهم فاستقبلنه كأنه سيقيم في ذاك المكان. منهم من بكى و منهم من فرح لمغادرته تعاطفاً مع قصته. سأل عن الحرب الأهلية

فوجد أن آخر أيامها قادمة، و قدَّم له الناس من شدة حبهم له من الأشياء ما سيحتاج في الطريق و ما لن يفعل.

حمل حقيبته و كانت آخر كلمة منه هي السؤال عن طريق آمن يسلكه، أجابه كبير الجماعة و استبرك لحياته المستقبلية بإعطائه فانوس أسود اللون. بدأ سديم بالمشي و هو يشعر أنه يمحي الماضي من وجهه و شوق ما هو قادم يجذبه ليخطو خطوة جديدة بعد السابقة.

نهاية رواية قصة الشخصية المجنون و سديم تنتهي ببداية الأخير حياة جديدة، بداية ميَّزها الحماس و بسطة التحرك، التفكير و التخطيط. بدأ هذه المرحلة في مكانٍ بعيد حيث ركب السفينة مسافراً ليبتعد أكثر ما يمكن، يفكر و يخطط لبناء حياة جديد و البحث عن فرصة ارتداء قناع يجعله يؤدي دوراً ما في الحياة.

رحلة دامت ثلاث أسابيع من التحرك و ترك كل شيء الوراء، في الرحلة التقى بسيدة عجوز حيث تعرف عليها من خلال مساعدته لها في حمل بعض الحقائب الثقيلة التي جعلته يسألها عن سبب سفرها هذا بكل هاته الأمتعة الثقيلة و لمسافة طويلة. أجابته بكلام مخيف فقد قالت أنا كبُرت من السن لدرجة أنها بدأت تشعر بقدوم الموت، فعزمت على أن تعود لتموت في ديارها بعدما كانت تعيش في نفس بلد سديم مع زوجها الذي توفي قبل أسبوعين.

كانت المرأة العجوز هي أنيس سديم لهذه الرحلة الطويلة، فقد كانت تتكلم قدر ما لا يجعل سديم يشعر بالملل. فتحدثت عن وجهتها التي جعلها سديم وجهته هو الأخر بعدما أُعجب بطريقة تفكير السيدة رغم أنها عجوز، و

إعجابه أيضاً بالوصف الدقيق للمكان بأجمل صدر و عَجُزْ قيل عن ذاك البلاد من تلك العجوز.

بعد الوصول إلى النقطة الأبعد، استقر الشاب الذي غَيَّر اسمه إلى "أحمد" و وجد عمل جعل له مدخول شهري به يعيش و يذخر لما هو آتٍ.

بدأ مرحلة جديدة عرف فيها ناس من نفس معدنه و ناس من طبيعة الحال تشبه أعدائه السابقين. وكما كان يحلم و هو صغير أن يفعل قد فعل، فقد خصص وقته كاملاً تقريباً لدراسة الطب بعدما تمكن من الاندماج مع المجتمع الجديد غير الفاسد و تمكنه أيضاً من إتقان اللغة الجديدة.

بعد كل مرة يعود فيها من العمل إذ لم يشعر بالعياء يذهب إلى مقهى قرب البيت الذي اكتراه، فيجد هناك الكثير من القرَّاء و الكتَّاب يجعلون المساء تحت إمارتهم بالتحدث عن ما يقرئه البعض و ما يكتبه البعض. فكان يومه بين العمل و دراسة الطب و الجلوس في المقهى.

مرت أكثر من عشر سنوات، كل من المهمة و الأحداث أصبحت ذكريات تجعل **"أحمد"** يأخذ وقتاً بين مهام يومه ليتذكر ما كان يعيش. سنوات مرت بين التعلم و العمل، عرف فيها ناس ممن يجلسوا في المقهى فجعلوا له مكان خاصة بينهم حيث بدت له الرغبة في الكتابة هو الأخر و عرف معنى ما يدفع المرء أن يكتب و هو في غرفته واحداً يتحدث لإلهامه و يصور أفكاره ويلعب بكلمات لغته خصوصاً بالقصة التي يحملها ماضيه. بلغ من المعرفة في دراسة الطب مبلغ جعله يعمل في المستشفى كمساعد ممرض هو الآخر من أصحاب المقهى.

في يوم من الأيام عاد من مكان العمل بإلهام لم يشعر به من قبل أبداً رغم أنه جَرَّب أن يكتب، أخذ ورق و قلم جلس في مكتبه، في يده ساعة جده التي لا زالت عقاربها من تُهدئه في بعض الأحيان، بجانبه كتاب "شعيب و نور"و بعض الأشياء من الماضي كانت، و كَتَب بالذكريات و الخيال:

"لا يرى سوى تحرك عقرب ساعة فوق مرقده الصغير، صوت البكاء، جو الحزن. يريد أن يبحث عنه لكن عيناه هي الأخرى لا تتوقف عن جمع الدموع و سكبهم على خديه. لا يعلم لماذا رحل هذا اليوم مبكر...

نجح الكتاب بعدما انتهى سديم من تأليفه، فقد ساعده كل من كان يعرفه من المقهى، نجح الكتاب و اعتبره الكثير أنه من الأقلية التي ناقشت مواضيع بجرأة عن ذاك المجتمع المنغلق على نفسه.

كان أيضاً الكثير ممن عاضوا و نقدوا الكتاب لا من ناحية الشكل أو المحتوى. عموماً نجح الكتاب وكان سديم المسمى حديثاً أحمد يستقبل الكثير من الضيوف و تصله العديد من الرسائل التشجيعية و التي تحاول ردعه أيضاً.

في يوم من أيام العمل، تصله رسالة من مسقط رأسه، من شخص مجهول لكنه تكلم عن المجنون و الأم ماجنيس و أخبره أنهم غادروا الدنيا هم أيضاً. كانت الرسالة وجيزة لأن المرسل فقط كان يريد أن يخبر لا غير ذلك، فكتب في آخرها؛ **رغم أنه شبح يمكن أن يُطرد إلا أنهم اعتبرنه مقدساً مرة أخرى، إن الوهم المقدس يا ابن شعيب لا يمحى من عقلهم، إنه اشبح المقدس.**